مقامات التعبير بالمطر في النظم القرآني

دكـتـور

علي عبد الموجود نورالدين محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ،،،،

فإن المتأمل المتدبر في بيان القرآن الكريم يدرك دقته البالغة في انتقاء الألفاظ والتراكيب ، وفي اصطفاء الأساليب المعبرة عن مقاصده في أبهى صورة وآنق عبارة.

كما يدرك عظمته في صهر الكلمات في بوتقة نظمه المعجز المبهر ، ودمجها في سياقها مما يكسبها معاني جديدة تتناغى مع السياق وتتآزر مع التراكيب في إبراز المعاني وتجلية المقاصد.

ومن الكلمات التي اكتسبت خصوصية في البيان القرآني كلمة (المطر) باشتقاقاتها المتنوعة (أمطرنا ـ أُمطرت ـ أمطِرْ ـ مطرًا ـ مطرٍ ـ مطرَ ـ ممطرنا) ، والتي تدل في أصل وضعها اللغوي على الماء النازل من السماء. أما في القرآن الكريم فقد غلب استعمالها في سياقات العذاب والعقوبة، وتعلقت بها الحجارة النازلة من السماء لإهلاك المشركين المعاندين والمكذبين رسل الله تعالى.

ومن هنا عقدت العزم مستعينا بالله تعالى على دراسة " مقامات التعبير بالمطر في النظم القرآني " ، وقد اعتمدت في ذلك على منهج التحليل البلاغي في تذوق آيات المطر وربطها بالسياق ، وتدبر دقائق النظم فيها وأسراره البلاغية . ومن ثم جاءت الدراسة في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة أعقبتها بذكر أهم المصادر والمراجع.

المقدمة: وذكرت فيها أهمية الدراسة وسببها ومنهجها وخطتها.

التمهيد: وتناولت فيه مفردة "المطر" ببيان أصل اشتقاقها ومعناها ، وتأويل العلماء لاستعمالها في القرآن الكريم. ثم ذكرت الآيات موطن الدراسة ، ومقاماتها في النظم القرآني.

المبحث الأول : التعبير بالمطر في مقام العذاب والإهلاك

المبحث الثاني: التعبير بالمطر في مقام التذكير بمكر مشركي مكة

المبحث الثالث : التعبير بالمطر في مقام الخوف والحذر من العدوّ

وقد ذكرت في **الخاتمة** أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم كتابه وتدبر دقائقه وأسراره ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وأن يغفر لي ما كان من تقصير أو ذلل غير مقصود ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه ... ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

د/ علي عبد الموجود نورالدين محمد

تمهيد

مفهوم المطر في اللغة:

المطر: الماء المنسكب من السَّحاب. والمطر: ماء السَّحاب ، والجمع أمطار. والمطْرُ: فعلُ المطَر ،وأكثر ما يجيء في الشعر ، وهو فيه أحسن ، والمطْرةُ: الواحدة. ومطرتهم السماءُ تمطُرُهم مطَراً ، وأمطَرتْهم: أصابتهم بالمطر.([1]).

وأورد ابن سيده(ت٤٥٨هـ) عن أبي عمروبن العلاء(ت١٥٤هـ): أمطرهم الله في العذاب خاصة([2]). كقوله تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} **الأعراف:(٨٤)**.

وقيل: مَطَرت السماءُ وأمْطَرتْ بمعنى.([3]) ،أي الفعلان معناهما واحد في وضع اللغة.

وقال أحمد بن فارس:"الميم والطاء والراء" أصلٌ صحيح فيه معنيان: أحدهما ـ الغيث النازل من السماء ، والآخر: جنس من العدْو"([4])

وتمطَّرتْ به فرسُه: جرتْ. وجاءت الخيلُ متمطِّرة: أي مسرعة يسبق بعضها بعضاً.

قال رؤبة: والطيرُ تهوي في السماء مُطَّرا.

---

١) ينظر: مادة(مطر)في كتاب العين للحليل بن أحمد الفراهيدي١٤٩/٤ تحقيق:د/عبدالحميد هنداوي ط:أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م دار الكتب العلمية بيروت . ولسان العرب لابن منظور١٧٨/٥ ط:دار الفكر ـ بيروت.

٢) المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي ،المعروف بابن سيده ١١٠/٩ ط:دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣) لسان العرب لابن منظور (مطر) ١٧٨/٥ .طبعة دار الفكر بيروت. ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٤) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، باب الميم والطاء وما يثلثهما "مطر" ٣٣٢/٥ ط:أولى ١٤١١هـ ١٩٩١م ، دار الجيل ـ بيروت.

يعني: مسرعة([1]).

فالنزول من السماء والسرعة من أوصاف المطر ؛ حيث تشير الصفة الأولى إلى ابتدائه ومكانه ، والأخرى إلى طريقة نزوله.

فوصف الخيل أو الطير بكونها متمطرة أو مُطّرا من قبيل تشبيهها بالمطر في السرعة وسهولة الحركة المتتابعة عدْواً على الأرض ، أو هوياً وهبوطً من الجو.

ويطلق على المطر أسماء كثيرة حسب حجم وكيفية نزوله، وأُولى أسماء المطر: القِطْقِط ،وهو أصغر المطر. والرذاذ فوق القطقط. ومن المطر: الدِّيمة ،وهو المطر الدائم الذي ليس فيه رعدٌ ولابرق ، أقلها ثلث النهار أو ثلث الليل. والتَّهتان نحو الديمة. والوابل: وهو أغزر المطر وأعظمه قطْرا. والحَيا : المطر الكثير. والولْي: المطر بعد المطر في كل حين. والغيث: اسم للمطر كله وجمعه الغيوث([2]). وقد جمع امرؤ القيس بعضاً من أسماء المطر حين شبه دمع عينيه في نزوله بأنواع المطر فقال ([3]):(من الطويل)

أمِنْ ذِكْرِ نَبْهَانِيّةٍ حَلّ أهْلُهَا ... بِجِزْعِ المَلا عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ

فَدَمْعُهُمَا سَكْبٌ وَسَحٌّ وَدِيمَةٌ ... وَرَشٌّ وَتَوْكَافٌ وَتَنْهَمِلانِ

كَأنّهُمَا مَزَادَتَا مُتَعَجِّـــــلٍ ... فريانِ لما تُسلقا بدهـانِ

---

١) ديوان رؤبة بن العجاج ص١٧٤ت:وليم بن الورد ط:دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت . وينظر: كتاب العين للخليل "مطر" ١٤٩/٤.

٢)ينظر: كتاب المطر لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري(ت٢١٥هـ) ص٥ ـ ٨ ط: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ـ بيروت١٩٠٥م.

٣) ديوان امرئ القيس ص٨٨ تحقيق/ محمد أبوالفضل إبراهيم ط: دار المعارف ـ مصر.

وذكر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) أنك لا تجد القرآن يلفظ بالمطر إلا في موضع الانتقام ، والعامة وكثير من الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث([1]).

مفردة المطر ومقاماتها في القرآن الكريم:

وقد تكررت مفردة "المطر" في القرآن الكريم خمس عشرة مرة في **تسعة مواضع**، سبع مرات بصيغة الفعل (٥ أمطرنا، ١ أُمطرتْ ،١ فأمطرْ) ، وسبعا بصيغة الاسم (٣ مطراً ٢مطرُ ١ مطرَ ١مطرٍ) ، ومرة واحدة بصيغة الاسم المشتق (مُمطِرُنا) :

١ـ قال تعالى :{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}

النساء: (١٠٢)

٢ـ قال تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

}الأعراف:(٨٤)

٣ـ قال تعالى: { وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} **الأنفال:(٣٢)**

٤ـ قال تعالى:{ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} **هود:(٨٢)**

٥ـ قال تعالى:{ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}

الحجر:(٧٤)

---

١) ينظر: البيان والتبيين للجاحظ ٢٠/١ ت:عبدالسلام هارون ط:مكتبة الخانجي بالقاهرة (السابعة)١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٦ـ قال تعالى:{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} **الفرقان:(٤٠)**

٧ـ قال تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ}

الشعراء:(١٧٣)

٨ـ قال تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ}

النمل:(٥٨)

٩ـ قال تعالى:{ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} **الأحقاف:(٢٤)**

ويغلب على هذه المفردة استعمالها في مقامات العذاب والعقوبة (ثمانية مواضع) ،منها سبعة مواضع بصيغة الإخبار عن عقوبة وقعت ، وموضع بصيغة الطلب لعقوبة.

بينما استعملت في مقام الخوف والحذر من العدوّ في موضع واحد.

ولعل هذا ما دفع بعض علماء اللغة إلى القول بأن : أمطرهم الله تستعمل في العذاب خاصة ، وأغلب العلماء على أن قولنا: مطرت السماء وأمطرت ، بمعنى واحد([1]).

وبنظرة متأنية ندرك أن من قال باستعمال "أمطرهم الله" في العذاب ، نظر إلى معنى الكلمة في استعمالها وسياقها ، وبنى عليه التفرقة في الوضع. أما جمهور العلماء فنظر إلى الكلمة في أصل وضعها اللغوي ، واستعمالها عند العرب. وهذا

١) قال السمين الحلبي: قال أبو عبيدة: يقال مطر في الرحمة ، وأمطر في العذاب ، وهذا مردود بقوله تعالى: (هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) ؛ فإنهم إنما عنوا بذلك الرحمة وهو من أمطر رباعيا ، ومطر وأمطر بمعنى واحد يتعديان لواحد ، يقال: مطرتهم السماء وأمطرتهم ، و(أمطرنا) ضُمن معنى (أرسلنا) ولذلك عُدي بعلى. (ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٣٧٤/٥ ـ ٣٧٥ تحقيق د/أحمد محمد الخراط. دار القلم دمشق).

أولى عند تحرير المعاني اللغوية للألفاظ مفردة ، قبل أن تكتسب معانيها السياقية. فالكلمة تظل حبيسة معناها الوضعي حتى تُستعمل وتنتظم في تركيب لغوي معبر، فتكتسي حُلاً من المعاني التي تُسهم في بناء النص وإتمام معانيه ، وتحقيق مقصوده. وأن أكثر ما ذُكر من المطر في القرآن الكريم كان مطر حجارة ، سواء ذُكر ذلك تصريحاً أو فُهم من السياق.

وحتى في الآيتين اللتين ورد فيهما المطر بمعناه اللغوي:

ـ قوله تعالى: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ...).

ـ وقوله تعالى:(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...).

نجد أن المطر في الآية الأولى قد ارتبط بالأذى أيا ما كان نوعه،

وفي الثانية اتضح أن العارض الذي توقعه الكفار مطراً يروي ظمأهم ويسقي زرعهم ،كان ريحاً فيها عذاب أليم.([1])

أما المطر الذي يسقي النبات فإن القرآن استخدم له كلمة "ماء" كقوله تعالى: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) البقرة: ٢٢ . وقوله سبحانه:(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) الرعد: ١٧

أو كلمة "الغيث" كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ..) لقمان : ٣٤

وقد جاء تعبير البيان القرآني بالمطر ومشتقاته في ثلاثة مقامات: مقام العذاب والإهلاك ،ومقام التذكير بمكر مشركي مكة، ومقام الخوف والحذر من العدوّ. حيث جرى التعبير بالمطر في مقام العذاب ، وذلك في **ستة مواضع**: منها خمسة مواضع في وصف عاقبة قوم لوط ـ عليه السلام ـ الذين اجترأوا على معصية الله عز وجل وكذبوا رسوله ، وكلها **بصيغة الفعل الماضي المبني للفاعل** والمسند إلى

---

١) ينظر: القرآن والحديث دراسة أسلوبية. د/إبراهيم عوض .ص٢٠٥ .مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

ضمير العظمة (نا):**(أمطرنا)** المتضمن معنى (أرسلنا)؛ لتعديه بحرف الجر (على) المضاف إلى ضميرهم ، أو ضمير القرية (عليهم ـ عليها).

وقد اقترن بالمفعول به: (مطراً) في ثلاثة مواضع ، و(حجارةً) في موضعين:

١ـ قال تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}

الأعراف:(٨٤)

٢ـ قال تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ}

الشعراء:(١٧٣)

٣ـ قال تعالى:{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ}

النمل:(٥٨)

٤ـ قال تعالى:{ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} **هود:(٨٢)**

٥ـ قال تعالى:{ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}**الحجر:(٧٤)**

ـ وموضع واحد **بصيغة الاسم المشتق (ممطرنا)** في سياق الإخبار عما حلَّ بـ (عاد) قوم سيدنا هود ـ عليه السلام ـ وذلك في: ٦ـ قوله تعالى: { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} **الأحقاف: ٢٤**

كما جرى التعبير بالمطر في مقام التذكير بمكر مشركي مكة في **موضعين:**

أحدهما ـ **بصيغة الفعل الماضي المبني للمفعول** المسند إلى ضمير القرية ، في سياق الوعيد والتهديد لمشركي مكة الذين كذبوا رسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم) :

ـ قال تعالى:{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} **الفرقان:(٤٠)**

ـ والآخر **بصيغة الطلب (فأمطِر)** في سياق جحود المشركين للقرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى:

ـ قال تعالى: { وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} **الأنفال:(٣٢)**

أما التعبير بالمطر في مقام الخوف والحذر من العدوّ ، فقد جرى في موضع واحد **بصيغة الاسم (مطر)** المجرور بـ "من" ، وذلك في قوله تعالى:

{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} **النساء: (١٠٢)**

فهذه الدراسة تتطلع إلى تبيان غرر المعاني ومكامن الأسرار التي اكتسبتها مفردة "المطر" في سياقاتها من النظم القرآني ، ومن ثمّ تجلية دورها في بناء المعاني القرآنية واكتمال صورتها المبهرة ، ونظمها البديع ، وبيانها المعجز والهادي إلى الطريق المستقيم.

المبحث الأول : التعبير بالمطر في مقام العذاب والإهلاك

وصفُ ما حلّ بالمشركين الذين كذبوا رسل الله من سوء العذاب في الدنيا وما سيحل بهم في الآخرة ، مقصدٌ مهم عمد إليه البيان العليّ لتحقيق أغراض مهمة منها: الاعتبار والموعظة بما حلّ بالأمم السابقة.

وقد ورد التعبير بالمطر في مقام العذاب والإهلاك في ستة مواضع: منها خمسة مواضع في تصوير عاقبة قوم لوط ـ عليه السلام ـ وموضع واحد في سياق وصف ما حل بـ "عاد" قوم سيدنا هود ـ عليه السلام ـ .

تصوير ما حلَّ بقوم لوط:

وقد جاء التعبير بالمطر في هذا السياق بصيغتين تركيبيتين ، حيث تكررت جملة: **(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا)** في ثلاثة سياقات كلها في تصوير عاقبة قوم لوط ـ عليه السلام ـ والدمار الذي حل بهم:

١ـ قال تعالى:{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ،وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } **الأعراف:(٨٣-٨٤)**

٢ـ وقال سبحانه:{ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ }
الشعراء:(١٧٠-١٧٣)

٣ـ وقال عز وجل:{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } **النمل:(٥٨)**

بلاغة النظم في قوله: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ...)

يتكون البناء التركيبي لهذه الجملة من : واو العطف،والفعل(أمطر)

والفاعل (نا) ، والجار والمجرور (عليهم) ، والمفعول به (مطرًا).

ـ فالواو عطف لجملة إهلاك وتدمير المجرمين من قوم لوط على جملة نجاة لوط وأهله من المؤمنين :{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا}.

والجملتان خبريتان لفظا ومعنًى ،وتصوران بإيجاز مشهد النهاية ، نهاية الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وقومه المكذبين المسرفين، وقد صدرتا بفاء الجزاء والعاقبة المنبئة عن سرعة ترتب ما بعدها على ما قبلها.

وقد جاء الجزاء متناغمًا مع عمل كل فريق منسجمًا مع موقفه ، وتساوقت المقابلة في الجزاء مع المقابلة في الفعل والسلوك .

وقدَّم الإخبار بإنجاء لوط وأهله من المؤمنين في قوله:{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} لقصد إظهار أنه الأهم ، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين

، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم السابقة ، فيعلموا أن تلك سنة الله في عباده ، ولدلالته على الإنجاء تصريحًا وعلى الإهلاك تضمنًا وإفهامًا([1]). والمعنى: خلَّصناه وأهله من العذاب والدمار الذي حلَّ بالمكذبين المسرفين. فالتقديم هنا في الذكر لا على نية التأخير([2]) قصد منه إظهار العناية والاهتمام بالمقدَّم ؛ لما يحققه من التعجيل بالمسرة وتحقيق الطمأنينة لقلوب المؤمنين المستمعين لبيان الوحي، و يفهم من كلام الشيخ الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ أن التقديم على نية التأخير ، حيث يقول:" (وأنجيناه) مقدَّم من تأخير.والتقدير: فأمطرنا عليهم مطرًا وأنجيناه وأهله"([3]) ،فهذا يعني تقديم ما رتبته التأخير. مع أن أصل النَّجاء : الانفصال من الشيء ، ومنه: نجا من فلان وأنجيته ونجَّيته([4]). والإنجاء والتنجية: التخليص([5]).

فتخليص الناجين وانفصالهم كان قبل أو مع إرسال المطر(الحجارة) على المكذبين المنتكسين عن الفطرة السوية ، وليس بعده كما يفهم من كلام الشيخ الجليل.

ففي التعبير بالفعل (فأنجيناه) تصوير لعظيم قدرة الله تعالى في الفصل السريع بين لوط ـ عليه السلام ـ وقومه ، وبيان موجز يجسد اللحظة الفارقة ، ويدل على الإنجاء تصريحًا وعلى الإهلاك إفهامًا.

وإسناد الفعل لـ (نا) العظمة لبيان عظمه وعلو شأنه ؛ لما فيه من تخليص لأهل العقيدة السليمة المتناغمة مع الفطرة ، وانفصالهم بعناية الله عما حلَّ بأصحاب العقيدة الفاسدة المتصادمة مع الفطرة ، وفي ذلك تكريم وتشريف للناجين ، وإهانة وتحقير للهالكين.

---

١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي٤٥٧/٧ د: دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ، وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور٤٨٤/٤ ط: الدار التونسية.

٢) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص١٠٦ ت:محمود شاكر ط.دار المدني. الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور٢٣٦/٨

٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني٤٨٤/٤ دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة (كتاب الجمهورية).

٥) تفسير الفخر الرازي٧١/٣

وإفراد ضمير سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ وإضافته لفعل الإنجاء زيادة في التكريم والإيناس والتقريب ، وإشارة إلى أن أهله ناجون معه برحمة وفضل من الله ومِنَّة.

وقوله: { إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } استثناء من أهله ؛ فإنها كانت تُسرّ الكفر ومن ثَمَّ كانت من الباقين في ديارهم الهالكين فيها.

وفصلت جملة (كانت من الغابرين) عما قبلها لكونها استئنافًا بيانيًا وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استئنائها من حكم الإنجاء ، كأنه قيل: فماذا كان حالها؟ فأتى بقوله: كانت من الغابرين" جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال([1]).

وتكمن قيمة الاستئناف البياني هنا في تحقيق مطلب بياني يلبي رغبة المتلقين في الفهم القائم على المشاركة والتواصل مع بيان الوحي ؛ مما يقوِّي القلوب ويرسخ الفهم. وهذا ما تلتقي في تبيانه وتأكيده أساليب: التقديم ، والاستثناء ، والاستئناف البياني في الآية.

والتذكير في (الغابرين) للتغليب ، ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة. ففيه إشارة إلى أنها أصابها مثل عذاب الرجال سواء ، لم تنقص عنهم لأنها كانت كافرة مثلهم([2]).

غبر الشيءُ يغبُر غُبورًا ، إذا مكث وبقي([3]). فـ (الغابرين) أي الباقين ، وقيل: من الهالكين، والعلاقة بين المعنيين اللزوم ؛ لأن البقاء في هذه الحال يلزم منه الهلاك والفناء. والمعنى: أنها كانت من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا ودُمِّروا([4]).

---

١) ينظر: دلائل الإعجاز ص٢٣٨.

٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي٤٥٧/٧

٣) لسان العرب لابن منظور مادة(غبر) ٣/٥ ط:دار الفكر بيروت١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٤) كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد. (تفسير ابن كثير ٢١٤/٢ المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م).

بلاغة التعبير بالاسم المشتق في قوله: (مِنَ الْغَابِرِينَ)

كثيرًا ما يرد في البيان القرآني العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة ، ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع أو مع جمع ، كما في قوله تعالى ـ على لسان فرعون ـ: { لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}الشعراء:٢٩ ، وقوله ـ على لسان قوم لوط ـ:{ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} الشعراء:١٦٧ ، وقوله ـ على لسان سيدنا لوط:{ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} الشعراء:١٦٨ ، وقوله سبحانه : { كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} الأعراف:٨٣ ، وقوله:{ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} التوبة:٨٧.

ولعل السر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن التعبير بالفعل إنما يُفهِم وقوعَه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحدًا من جمع فإنه يُفهم أمرًا زائدًا على وقوعه ، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به ،كأنها لقب وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة.

واعتبر ذلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا ، لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير ، وانظر إلى مساق البيان القرآني وهو قوله :{ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} ، كيف ألحقهم لقبًا رديئًا وصيَّرهم من نوعٍ رذلٍ مشهورٍ بسمة التخلف حتى صارت له لقبًا لاصقًا به([1]).

وإذا تقرر هذا كان التعبير بقوله: { كانت من الغابرين} الأعراف:٨٣ وقوله: (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)الشعراء:١٧١ وقوله:(إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) النمل:٥٧ ، يقتضي تأكيد الإسجال عليها بأنها من قوم موسومين بهذه السمة من الهلاك والدمار ، وهذا أبلغ من وصفها بكونها غابرة ، أو غبرت.

والتعبير بحرف الجر(من) في سياق آيتي الأعراف والنمل ، يشهد بكونها معدودة في زمرتهم وواحدة منهم تشاركهم هذا الوصف وتلك السمة من الغبور والهلاك.

أما في سياق سورة الشعراء فجاء التعبير بالحرف (في) لإفادة انغماسها في الصفة وعراقتها فيها ، مما يؤكد معاني التحقير والإهانة والإهمال المستفادة من التنكير في

---

١) ينظر: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد المنير الإسكندري ١٢٥/٣ ـ ١٢٦ (حاشية على الكشاف) ط: دار الفكر بيوت.

كلمة (عجوزًا)، وبذا يكون لكل حرف منهما مذاقه وقيمته التعبيرية في سياقه من البيان القرآني.

ويلحظ المتأمل هنا تعبير البيان العلـيّ بفعل الكينونة (كانت) في سياق سورة الأعراف ، وهي كينونة قدرية تقرر حصول الفعل بقدر الله تعالى وقدرته القاهرة ، وليست كينونة زمانية ، وهذ ما صرحت به آية النمل: (قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) ، وقررته بصيغة التأكيد والحسم آية الحجر(٦٠):(إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ).

والتأكيد في سورة الحجر جريًا على نسق الآيات وسياقها في هذه السورة : { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) } ، فهذا حوار بين سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين الملائكة ، وفيه تشوفت نفس سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الوقوف على أمرهم ؛ ومن ثَمّ كان الردُّ عليه مفعمًا بأدوات التأكيد والتوثيق ،لما لمسوه من عظيم تشوُّف الخليل عليه السلام إلى معرفة أمرهم ، وتشديد سؤاله في نجاة لوط عليه السلام وجميع آله ، كما نطقت به آيات سورة هود ـ أيضًا ـ : { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)} ، وفي ذلك قطعٌ لطمعه عن السؤال في نجاتها ، بخلاف ما في سورتي النمل والأعراف فإن السياق فيهما عارٍ عن ذلك ؛ ومن ثَمّ جاء التعبير فيهما خاليًا من التأكيد ، وبذا يتبين لنا أن لكل من التأكيد وعدمه ما يقتضيه ، وأن السياق في كل سورة هو الذي يحدد بناء التركيب على التوكيد أو خلوه منه.

دقائق التعبير بالاستعارة في قوله: { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا}

والفعل (أمطرنا) متضمن معنى (أرسلنا) ، والتعبير بـ (أمطرنا) دون (أرسلنا) للإشارة إلى نوعٍ من الإرسال عجيب مشبه إرسال المطر ، وإنما كان المرسل حجارة ، والمعنى: أرسلنا حجارة عليهم إرسال المطر هولًا وفظاعة ، وقوة مدمرة وإحاطة شاملة متمكنة منهم ؛ كما يؤكد ذلك تنكير (مطرًا) ، والتعبير بحرف

الاستعلاء (على) المضاف إلى ضميرهم ؛ لإفادة شدة التمكن و قوة التدمير الذي أصابهم وعمَّهم فلم يبقِ منهم أحدا([1]).

والمفعول به (مطرًا) المقصود منه: الحجارة ، كما صرحت به آية هود: { .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢)} ، وآية الحجر: { ... وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤)}.

والتنكير فيه لإفادة النوعية والتعظيم والتعجيب من شأنه، والمعنى: وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا من شأنه أن يهلك القرى، وفيه من التهويل والتفظيع ما فيه. ولا منافاة بين هذه المعاني التي تنبئ عن ثراء ألفاظ القرآن وسعة عطائها وتجسيدها لكثير من المعاني التي تكتسبها من السياق وفحوى الكلام، فهي " ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة"([2]).

وقد جسدت استعارة المطر للحجارة كل هذه المعاني ، حيث شبه الحجارة بالمطر ؛ لاشتراكهما وتلاقيهما في النزول من السماء ، وفي قوة الإرسال وغزارته وسرعته وكيفيته العجيبة ،وهي استعارة تصريحية مجسدة لمشهد الهلاك والدمار ، معبرة عن أداته وكيفيته وفظاعته التي تُلقي في النفوس المتلقية لبيان الوحي، فيرتدع ويُزجر المعاند المكذب بالرسالة ، ويطمئن ويُسرّ المؤمن المصدق بها،وهذا هو مضمون التركيب وغاية النظم ومقصده في مثل هذا الإخبار.

استعمال (أمطر) في النظم القرآني:

أكثرُ أهل العلم على أن مَطَر وأَمْطَر بمعنى واحد ، يقال: مطرتهم السماء وأمطرتهم ، أي أصابتهم بالمطر.

---

١) روي أن تاجرا منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.(الكشاف للزمخشري٢/٩٣ ط: دار الفكر بيروت).

٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية /مصطفى صادق الرافعي ص٣٠ المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

وفرَّق بعضهم بينهما فقال: يقال مطر في الرحمة ، وأمطر في العذاب خاصة([1]). ولم ترد في النظم القرآني صيغة (مَطَر) ، بل جرى التعبير فيه بصيغة (أَمْطَر) متضمنة معنى (أرسل) ومن ثمّ تعدَّى بحرف الاستعلاء (على) في جميع مواضعه.

فاستعمال (أمطر) بمعنى أرسل في سياق العذاب خاصة في القرآن الكريم ليس من قبيل الدلالة أو المعنى الوضعي لهذا الفعل ، بل من قبيل الإفادة المستقاة من السياق من ناحية ، ومن الصياغة والبناء التركيبي للجملة من ناحية أخرى ، فجميع السياقات التي ورد فيها التعبير بـ (أمطر) سواء بصيغة الماضي المسند إلى (نا) العظمة ، أو بصيغة الطلب هي سياقات إخبار عن عقوبة وعذاب ، أو طلب للعذاب ، كما أن تعدِّي الفعل بـ (على) جعله يتضمن معنى أرسل ، ووقوع (حجارة) مفعولًا به تصريحًا أو إفهامًا يؤكد ذلك ويقويه ، وينب عن معنًى جديدٍ اكتسبه هذا الفعل من السياق والتركيب.

ولعل أصحاب القول الثاني قد بنوا رأيهم على هذا المعنى المستفاد من السياق للفعل (أمطر) ، أما أكثر أهل العلم فإنهم نظروا إلى المعنى الأصلي والوضعي ، ومن ثم لم يفرقوا بين (مطر) و(أمطر) ؛ وذلك لأن الفعل عند إطلاقه يؤدي معناه الوضعي ،"فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية ولكن اتفق أن السماء لم تُرسل شيئًا سوى المطر"([2]).

التذييل([3]) في الآيات الثلاث([4]):

اتفقت آيات سور: (الأعراف ، والشعراء ، والنمل) في التعبير بجملة العقوبة(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا) المعطوفة على جملة الإنجاء ، بينما تنوعت جملة التعقيب والتذييل المتفرعة عن هذه القصة العجيبة والمتناغية مع سياقها في كل سورة :

---

١) يراجع ما ذكرنا في التمهيد من تفصيل لهذه المسألة.

٢) حاشية الشهاب على البيضاوي ١٨٧/٤. ط: دار صادر ـ بيروت.

٣) التذييل: تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد.(المطول للتفتازاني ص٢٩٤ المكتبة الأزهرية)

٤) الأعراف٨٤ ، والشعراء١٧٣ ، والنمل ٥٨.

ـ ففي سورة الأعراف ختم البيان القرآني حديثه عن هذه القصة العجيبة بالأمر بالنظر في عاقبتهم بقصد حث الأمة على الاعتبار، وتسلية النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك في قوله جلَّ وعزَّ: (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) ، وقد صُدِّر هذا التذييل بفاء العاقبة والتفريع ليرتب ما بعد الفاء على ما قبلها ؛ لتكون هذه الجملة تجسيدًا لموطن العبرة والموعظة من إيراد هذه القصة العجيبة بما توحي به من تسلية وتصبير للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، ومن تهديد ووعيد للمشركين.

والخطاب يمكن أن يكون عاما لكل من يتأتى منه التأمل والنظر والاعتبار ؛ فيكون معنى الأمر الإرشاد والاعتبار ، والتعجيب من حالهم ، والتحذير من أعمالهم المشينة التي قادتهم إلى الهلاك والدمار.

ويمكن أن يكون الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) فيكون المقصود من الأمر التسلية والتصبير على ما يلاقيه من قومه من جحود وتكذيب وعناد ، بأنه لا ييأس من نصر الله تعالى ، وأن شأن الرسل وأتباعهم انتظار العواقب التي تجسد نصرة الله لرسله. ومآل التأويلين في المقصود بالخطاب واحد ، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) أول المتأملين والناظرين ، وخطابه ينسحب على الأمة من بعده. والمهم تحقق المقصود من الأمر وهو متنوع بتنوع الناظرين والمعتبرين.

والمقصود بالنظر هنا نظر التأمل والاعتبار ؛ ولذلك جاءت (كيف) ـ التي يسأل بها عن الحال والكيفية ـ معمولا لفعل النظر ؛ لأن قصة قوم لوط ـ عليه السلام ـ انفردت بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش ؛ مما جعل عقوبتهم تكون بهذه الطريقة العجيبة الناطقة بكل معاني البشاعة والفظاعة والتهويل ؛ ومن ثم كان الأمر بالنظر والتأمل في الكيفية العجيبة المتفردة في الفعل وفي العاقبة.

والتعبير بالوصف (المجرمين) وإضافته إلى العاقبة إظهار في موضع الإضمار للتهويل من فعلتهم ، ولبيان علة الحكم ([1])، فالمجرمون: فاعلو الجريمة مرتكبو المعصية والسيئة([2]) الذين ترسخ فيهم هذا الوصف حتى صار لقبًا لهم وعلمًا عليهم.

---

١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ١٧٩/١٤.

٢)ينظر التحرير والتنوير ٢٣٨/٨.

والمعنى: فانظر وتأمل بعقلك وقلبك أيها المتأمل ، كيف أمطر الله تعالى الحجارة على من يعمل ذلك العمل الشنيع الفظيع.

فذكرُ الوصف قرر علة الحكم ، وأكد رسوخ الصفة فيهم ، وأفاد معنى الزجر والتخويف من فعل هذه المعصية والإصرار عليها.

ـ وفي سورتي الشعراء والنمل جاء التعقيب بقوله سبحانه: **(فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ)** ، وهو تذييل مسبب عما قبله متفرع عنه ؛ لإفادة المبالغة في ذمهم وتحقيرهم وإهانتهم والتعجيب من شأنهم . والمعنى: بئس مطر من أنذر فلم يؤمن ، أو ما أسوأ مطر المنذرين الذين خوفهم لوط وحذرهم فلم يرتدعوا أو يرجعوا عن فعل الفاحشة ؛ فاستحقوا العاقبة السيئة ([1]).

وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين أنذروا فلم يؤمنوا ، وتهديد ووعيد لهم على عدم الاستجابة لدعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) وإنذاره إياهم.

وفيه تفظيع وتهويل من نوع المطر الذي أصابهم وسقط عليهم ؛ فما أسوأه من مطر!! يؤكد ذلك إضافته إلى السَّوْء في قوله تعالى:

{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} الفرقان:(٤٠)

وتدبر معي كلمة (مطر) وهي نكرة وإضافتها إلى وصفهم (المنذرين) واكتسابها التعريف منه ، وتذوق خصوصية الإضافة وشدة ارتباط طرفيها ؛ لتدرك أنه نوع من المطر خاص ، أرسل إلى هؤلاء القوم الذين أنذروا فلم يؤمنوا أو يرتدعوا. وأن سيدنا لوط سلك كل طريق لإنذارهم فلم يستجيبوا له ؛ فاستحقوا أن يعاقبوا بالتدمير والهلاك.

ونلحظ أن التذييل في سورة الأعراف فيه تركيز على الحث على التأمل والاعتبار بما حلَّ بهؤلاء القوم المجرمين من عاقبة مخزية تتناغى مع فعلتهم الشنيعة. أما في سورتي الشعراء والنمل فإن التذييل أفاد التهويل والتفظيع من نوع المطر وسوء العذاب الذي أهلكهم ، وبذا تتكامل المعاني ويتحقق المقصود من القصة.

---

١) ينظر: تفسير بحر العلوم للسمرقندي٤٨٢/٢ ت/الشيخ علي محمد معوض وآخرين . دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الأولى١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

بلاغة التصريح بإمطار الحجارة

وجاء التصريح بإمطار الحجارة في موضعين:

٤ـ قال تعالى:{ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} **هود:(٨٢)**

٥ـ قال تعالى:{ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}**الحجر:(٧٤)**

جرى التعبير بالمطر عن الحجارة على سبيل الاستعارة في الآيات الثلاث السابقة ، أما في آيتي هود ، والحجر ، فقد جاء التصريح بذكر الحجارة ؛ حيث وقعت مفعولًا به للفعل (أمطرنا) ؛ وذلك ليتحقق الإخبار عن هلاك قوم لوط ـ عليه السلام ـ بأكثر من أسلوب ، وبعدة وسائل في الإبانة والتصوير حقيقةً أو مجازًا ؛ وذلك بقصد تقليب المعاني وتنوع أساليب الإبانة عنها ؛لتكتمل صورة المشهد من جميع جوانبها بعد تفريقها على السور بما يتلاءم مع سياق كل سورة ومقصودها وأبنيتها التركيبية.

فقوله سبحانه: (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا....) إخبار ووصف أكثر تفصيلًا لهلاك قوم لوط ، وبيان لمآل أمرهم وسوء عاقبتهم.

وقد صُدر الخبر بفاء التعقيب والترتيب ؛ لإفادة ترتبه على ما قبله وتفرعه عنه ، وفي ذلك ربط للمسبب بسببه ، وإشارة إلى الرباط الوثيق بين العقوبة والفعل.

و(لمَّا) حرف وجود لوجود ، وتختص بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما ، تقول: لما جاءني أكرمته(١) فالإكرام متحقق لوجود المجيء. وهذا يعني أن جملة: (جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) تحقق وجودها لوجود جملة: (جَاء أَمْرُنَا) قبلها.

والمقصود بالأمر هنا: ما هو ضد النهي ، فهو واحد الأوامر. والمراد: أن الله تعالى أمر جمعًا من الملائكة وكلفهم بأن يخربوا هذه القرية أو القرى ويجعلوا

١) وذهب بعض العلماء إلى أنها ظرف بمعنى (حين) أو بمعنى (إذ). (ينظر: مغني اللبيب ٢١٩/١).

عاليها سافلها. والمعنى: ولما حان وقوع أمرنا للملائكة بالعذاب جعلنا عاليها سافلها وهم فيها.

ففي قوله: (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا) إشارة إلى تكليف الله تعالى جمعًا من الملائكة بإيقاع العذاب على هؤلاء القوم.

والمجيء استعارة للحصول والوقوع ، حيث شبه حصول الأمر ووقوعه بالمجيء واشتق من المجيء جاء بمعنى حصل ووقع ؛ وذلك بقصد إفادة تحقق وقوعه وفق أمر الله تعالى وتكليفه لملائكته ، وفي هذا إيحاء بشدة هول ما وقع عليهم من عقوبة وعذاب استحقوه بأفعالهم المنافية للفطرة البشرية ، وبتكذيبهم وعنادهم الشديد لسيدنا لوط ـ عليه السلام ـ.

وقد أشار الراغب إلى أن :"المجيء يقال اعتباراً بالحصول، ويقال جاء في الأعيان والمعاني ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكاناً أو عملاً، أو زماناً...".(١)

فالتعبير عن الوقوع بالمجيء فيه إشارة ودلالة موحية(٢) على أمرين :

أحدهما ـ أن حصول أي أمر مرتبط بوقته الذى قدره الحق عز وجل، والذى لا يقبل التقدم، أو التأخر، أو التبدل أو التغيير، فإذا حضر ذلك الوقت حضر معه الأمر المقدر حصوله فيه، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه:﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾(الحجر:٢١).

والآخر: أن المجيء كان ينتظره لوط ـ عليه اسلام ـ ويترقبه بشوق ولهفة، وذلك حتى لا يفضحوه مع ضيفه ، كما قال تعالى على لسانه : ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ (هود:٨٠) ـ ﴿ **قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ،وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ**﴾(الحجر:٦٨،٦٩ ، فدافع الترقب والشوق ومقتضاهما موجودان.

وقيل: المراد بالأمر العذاب ، على تقدير مضاف ؛أي: ولما جاء وقت عذابنا.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني/ كتاب الجيم/ مادة (جاء).

(٢) ينظر ذلك في: التفسير الكبير م١٦ ج ٣٢ ص ١٥٣، وحاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٤٠٦/٨.

وسياق الكلام يرجح القول الأول في معنى الأمر ؛ فقبل هذه الآية جاء قوله تعالى ـ على لسان الملائكة ـ: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾(الحجر٥٨) فدلَّ على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب إلى قوم لوط المجرمين وبإيصال العذاب إليهم.

وقوله سبحانه: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ هذا الجعل هو العذاب،فدلت هذه الآية على أن هذا الأمر شرط والعذاب جزاء، والعذاب غير الجزاء، فهذا الأمر غير العذاب([1]).

كما أن التأويل الثاني يحتاج إلى تقدير مضاف محذوف ، أي فلما جاء وقت عذابنا ، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى.

وإضافة الأمر لـ(نا) العظمة تعظيمًا لشأنه ، وبيانًا لخطره وهوله على من وقع عليهم العذاب ، وإشارة إلى أن العظيم سبحانه هو الفاعل والمدبر والآمر ، والملائكة ينفذون أمره وفق إرادته ومشيئته سبحانه.

وقد عبر البيان القرآني عن العذاب الواقع على قوم لوط في هذا السياق بجملتين فعليتين كاشفتين:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وهو تصوير لمشهد معجز عجيب مفزع ، حيث قُلبت مدائنهم عليهم وهم فيها وصار عاليها سافلها([2]).

والتعبير بالفعل"جعلنا" تجسيد للحظة التحوُّل المدمر للقرى بمن فيها وما فيها، وإبراز لطريقة الإهلاك المخزي المطبق المستأصل. وإسناده لضمير العظمة لكونه الآمر به ، والملائكة يباشرون الفعل وفق أمره وإرادته، من باب إسناد الفعل إلى المُسبِّب موجد الأسباب وخالقها سبحانه ، فالإسناد إليه مجاز عقلي باعتبار اللغة

---

١) ينظر: التفسير الكبير للرازي ٣٨/١٨.

٢) رُوي أن جبريل ـ عليه السلام ـ أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديكة ، ولم تنكفئ لهم جَرَّة ، ولم ينكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض. (ينظر: تفسير الفخر الرازي٣٩/١٨ دار الفكر. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م).

وإن كان هو الفاعل الحقيقي جلَّ شأنه ، وكونه مسببًا شامل لكونه آمرًا، فالمقصود: تعظيم ذلك الأمر وتهويله ؛ لأن ما يتولاه العظيم من الأمور فهو عظيم([1]).

وبين (عاليها) و(سافلها) طباق يبرز الأمر الجلل ، والفعل المعجز ،ويؤكد هول المشهد وفظاعته في تبديل الحال وسوء المآل للظالمين المعاندين.

والضمير في ((عاليها) و(سافلها) يعود على القرى كما يفهم من سياق الكلام.

وقد اكتفى([2]) التعبير القرآني بذكر جعل العالي سافلا ، مع إفهام جعل السافل عاليا ؛ لما بينهما من التلازم والارتباط في الواقع.

والمعنى: أن القرى انقلبت عليهم انقلاب خسف حتى صار عالي البيوت سافلا ، وسافلها عاليا وذلك بسبب انقلاب الأرض بهم. وإنما اقتصر على ذكر جعل العالي سافلا ؛ لأنه أدخل في الإهانة ([3]) ، وآكد وأظهر للهول والفظاعة؛ مما يحقق مقصود الآيات من الاتعاظ والاعتبار بما حلَّ بالظالمين من عذاب مهين.

والأخرى ـ قوله تعالى:﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود: ٨٢ ـ ٨٣

أي: أرسلنا على مدنهم بعد قلبها من أجلهم حجارة من طين مستحجرة قوية شديدة ، قد أعدت في السماء لذلك ، ويتبع بعضها بعضًا في نزولها عليهم.([4])

وقد أفادت واو العطف الجمع بين جهتي العذاب الواقع عليهم، وذلك تأكيدا لشدة هوله وقوة أخذه ، وعمق إهانته لهم. فقد أخذوا من تحت أرجلهم بالخسف والقلب ، ومن فوقهم بالحجارة المعدة لهم والمتتابعة في نزولها عليهم.

---

١) ينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي ١٢٣/٥ ـ ١٢٤ دار صادر ـ بيروت.

٢) الاكتفاء هو: أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة. (البرهان في علوم القرآن للزركشي ١١٨/٣ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط:المكتبة العصرية ـ بيروت).

٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير١٣٤/١٢.

٤) ينظر: تفسير ابن كثير٢١٣/٢ ، ونظم الدررللبقاعي٣٤٦/٩.

وإسناد فعل (أمطر) لضمير العظمة ؛ لإفادة التعظيم والتهويل من شأن المرسَل ، وتعديته بحرف الجر(على) لتضمنه معنى (أرسلنا) ، أي: أرسلنا وأنزلنا على قريتهم أو مدنهم حجارة ، والمقصود من ذلك أهلها.

والتعبير بضميرها لإبراز مشهد الحجارة المرسلة المتتابعة وقد عمت مدنهم فلم تُبقِ منهم أحدًا ، وفي هذا تأكيد لمعنى الاستئصال والتدمير الذي أطبق عليهم وعمَّ قراهم ومدنهم.

أما في سورة "الحجر" فقد عبر بضميرهم: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} ؛ وذلك لإبراز معنى الإصابة المباشرة لهم،وأن الحجارة

قد أعدت لأجلهم ، وهذا أدخل في إهانتهم وتبكيتهم. وبهذا تكتمل صورة المشهد الرهيب المفزع المدمِّر ، والعذاب المؤلم المهين.

فسياق سورة "هود" يقرر عموم العقوبة وشمول العذاب وإحاطته بهم ؛ ومن ثم فلا يقدرون على رده أو مواجهته ،كما قال سبحانه: (وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

هـــــود:٧٦

أما سياق سورة "الحجر" فقد أكد شدة العذاب وقوة إيلامه لهم ، كما قال سبحانه: (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) الحجر: ٥٠ ، وبذا ينسجم كل بيان مع سياقه ، ويتعانق البيانان في السورتين في إبراز صورة مشهد العذاب كاملة. والله أعلم.

ولما كان المقصود في سورة "هود" إبراز التهويل والتخويف من العذاب الذي لا يرد والذي يستأصل شأفة المعاندين ويعم كل شيء ، فقد فصَّل البيان القرآني القول في الحجارة ، وذكر لها أوصافًا كاشفة عن المعنى المراد: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود: ٨٢ ـ ٨٣

والسِّجِّيل: حجرٌ وطينٌ مختلط(١) ، وهو وصف لطبيعة هذه الحجارة في أصل تكوينها المنبئ عن صلابتها وشدتها.

و(منضود): متراكم مُلقى بعضه على بعض ، يُقال نضدت المتاع بعضه على بعض ألقيته فهو منضود ونضيد(٢).

١) قيل: أصله فارسي (ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٢٣٤.

٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص٤٩٧.

و(مسوَّمة): معلَّمة بعلامات تدل على أنها مُعدة للعذاب ، من السيما والسومة وهي العلامة تُجعل للإبل السائمة لتتميز إذا اختلطت في المرعي([1]). وهذه الأوصاف كاشفة عن طبيعة الحجارة وهيئتها وسيماها الميزة والمنبئة عن كونها معدة للعذاب.

وقوله:(عِنْدَ رَبِّكَ) تفخيم لشأنها وتأكيد لعلو مصدرها وطبيعتها. والتعبير بالاسم الظاهر (رَبِّكَ) للإشارة إلى كثرة إحسانه إليه وأنه إنما أمره (صلى الله عليه وسلم) بالإنذار رحمة لأمته التي جعلها خير الأمم وسيجعلها أكثر الأمم ، ولا يهلكها كما أهلكهم([2]). وإضافة كاف الخطاب فيه للتشريف ولإيناس.

وبالتأمل والتدبر ندرك حرص البيان القرآني على تأكيد معنى العلو والقهر في هذا السياق ؛ حيث دلَّ عليه بأكثر من كلمة:

الفعل (أَمْطَرْنَا) ، وحرف الجر (عَلَى) ، وقوله: (عِنْدَ رَبِّكَ). وإبراز معنى العلو والدلالة عليه بأكثر من لفظة في هذا السياق ، يرمي إلى تأكيد معاني الشمول والهيمنة والسيطرة وقوة الإصابة ، ويتناغى مع تركيز البيان العليّ على تجلية صورة جعل العالي سافلا في قوله تعالى:﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ ، وبذا يتلاقى الوصفان في تأكيد معنى العلو المنبئ عن شمول العذاب وهوله وشدته. والله أعلم.

أما في سورة "الحجر" فقد كان التركيز على شدة وقوة وقع العذاب عليهم ، ومن ثم جاء فيها التعبير بقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ الحجر:٧٣ ، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند طلوع الشمس([3]) ، واكتفى بوصف الحجارة بقوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي حجارة من طين مستحجر صلبة قوية في إصابتها شديدة في إيلامها ، وهذا ينسجم مع وصف العذاب في هذه السورة : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .الحجر: ٥٠

ونخلص من ذلك إلى ، أن كل تفصيل في الإخبار عن هلاكهم يتناغى وينسجم مع طبيعة ووصف العذاب الذي نص عليه البيان القرآني في كل سورة.

---

١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٣٤٦/٩.

٢) ينظر : نظم الدرر للبقاعي ٣٤٦/٩.

٣) تفسير ابن كثير ٥٠٩/٢.

التذييل في آية "هود":

وقد جاء التذييل في آية "هود" منسجما مع سياقه مبرزًا لغايته في بنائه ، فالسياق هنا يفيد أن الحجارة التي أمطرت بها المدائن ونزلت عليها بغزارة وتتابع مرسلة من مكان هو في غاية العلو ، ليعظم وقعها ؛ ومن ثم حسن كل الحسن إتباع ذلك بقوله عز وجل: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ ، أي هذه الحجارة على علو مكانها المرسلة منه ليست ببعيدة عن أي أحد عريق في الظلم في أي زمان ؛لئلا يتوهم الاحتياج في وصولها إلى المرمي بها إلى زمن طويل (١) ، وفيه من التهديد والوعيد لكل ظالم ومشرك ما لا يخفى ؛ لأن نفي البعد تأكيد لمعنى القرب. وهذا على تقدير عود الضمير (هي) إلى الحجارة.

ويمكن أن يعود الضمير على القرى أو المدائن ، أي وما تلك القرى ببعيدة من المشركين العرب ، فهي بمنظر منهم ويرونها عند سفرهم إلى الشام ، فالبعد المنفي بعد مكاني ، وحينئذ يكون المراد من الإخبار بذلك هو الحث على الاتعاظ والاعتبار والتهديد والوعيد بمآل الأشرار.

وقوله: ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ متعلق ببعيد ، وقدّم عليه للاهتمام به لكون الظلم هو السبب في النقمة والعذاب الذي حلَّ بهم ،ففي التعبير بالاسم الظاهر ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ دون ضميرهم تصريح بالسبب في نقمتهم التي تنتظر كل من تشبه بهم في ظلمهم ، وأصرَّ على الظلم حتى صار عريقًا فيه ؛ كما يشعر بذلك التعبير بصيغة اسم الفاعل.

ودخول الباء على الخبر ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ لتأكيد نفي البعد ، ومفاد ذلك تقرير معنى القرب ؛ مما يؤكد معاني التهديد والوعيد والزجر ، والحث على الاتعاظ والاعتبار.

واصطفاء التعبير بصيغة التذكير ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ مع كونه خبرًا عن ضمير الحجارة وهي مؤنث لفظًا ، ومع كون (بعيد) هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول ، فالشأن أن يطابق موصوفه في تأنيثه ؛وذلك بقصد مراعاة الفواصل والمحافظة عليها ، والقرآن الكريم يحرص على التنغيم الصوتي عندما يقتضيه السياق ، ولذلك نراه

---

١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي٣٤٧/٩.

واقعًا في الآيات التي تصف أحداثًا أو شعورًا أو أفكارًا من نوع متوهج على اختلاف الدرجة في ذلك.([1])

والنقمة والدمار الذي حلَّ بقو لوط يمثل حدثًا مروعًا تهتز له نفس كل ظالم وترتعد فرائصه ؛ومن ثم كانت مراعاة الفاصلة والمحافظة عليها مطلبًا سياقيًا وبيانيًا.

ختم آيات "الحجر" بما يؤكد مقصودها:

لم تُختم آية "الحجر" بتذييل كما ختمت آية "هود" ، بل جرى ختم الآيات بتعقيب أكد فيه البيان القرآني حقيقتين مفادهما إلهابٌ وحثٌ على التفكير فيما آل إليه أمر قوم لوط عليه السلام ، وتبكيتٌ للمشركين على عدم اعتبارهم بما حلَّ بمدائن قوم لوط التي هي بطريق ثابت واضح لا يخفى على أحد:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾الحجر: ٧٥ـ ٧٦.

أي فيما حلَّ بتلك المدائن آيات عدة ظاهرة للناظرين بعين الاعتبار في السمات الدالة والقرائن المبينة الكاشفة ،وهذه المدائن تقع بطريق ثابت واضح لا يخفى على أحد ، فكيف بمن يدعي أنه أبصر الناس بالتفرس في الآثار والسمات الدالة ، وهم مشركو قريش؟!

وقد سلك النظم القرآني في تقرير هاتين الحقيقتين مسلك التأكيد بـ"إن" واللام ، مع علمهم بمضمون الخبر في الآيتين وعدم إنكارهم له ؛ وذلك لعدم اعتبارهم بها مع رؤيتهم لها في كل حين يمرون بها([2])، ومن ثم جعلهم في عداد المنكرين لها ؛لعدم العمل بمقتضى ما يبصرون ويشاهدون. وفي ذلك تهكم لاذع ، وتبكيت وتعريض بمشركي مكة ، كما يومئ إلى ذلك التعبير بالوصف بصيغة اسم الفاعل ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وإسناد الاتعاظ بالآيات إليهم ، وهو جمع متوسم: وهو الناظر في السمة الدالة ـ وهي الأثر الدال في الوجه ـ والقرائن القاضية بالخير والشر ، وكانوا يدَّعون أنهم أبصر الناس بمثل ذلك.([3])

---

١) ينظر: خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص٢٨٩ ط. مكتبة وهبة

٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي١١/٧٨.

٣) نظم الدرر للبقاعي١١/٧٧.

وإذا كان التذييل في آية "هود" قد نص على سبب العقوبة والفاجعة التي حلت بقوم لوط بقصد التهديد والتحذير والوعيد لكل ظالم يشبههم في أفعالهم وظلمهم ، فإن التعقيب بعد آية الحجر فيه إلهاب وحث لكل من قصد أن يعتبر ويتعظ ، وتبكيت وتهكم وتعريض بالعقول المتبلدة التي لا تعي أو تدرك ما لا يخفى على أحد من الآيات الدالة والسبيل الواضحة.

وهذا تنوع في الأغراض يفضي إلى تكامل المقاصد في البيان القرآني عن طريق التنوع في الصياغة والنظم ، واصطفاء الأدوات والأساليب المعبرة والكاشفة. والله أعلم

وصف ما حلّ ب" عاد " قوم سيدنا هود عليه السلام:

جاء التعبير عن المطر بصيغة اسم الفاعل "ممطرنا" حيث وقعت وصفًا لـ"عارض" فيما حكاه القرآن على لسان "عاد" قوم سيدنا هود عليه السلام ، وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأحقاف:٢٤

فهذه الآية الكريمة تصف بأسلوب بالغ ومؤثر عاقبة الشرك والإصرار عليه بعدم الاستماع لإنذار رسل الله عليهم السلام ،حيث تصور مشهد نهاية عاد ، وتبرز الريح بوصفها أداة عذاب ووسيلة عقاب وتدمير لأهل الشرك.

وقد صيغت بأسلوب الخبر المقصود منه التذكير والتسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، والتهديد والوعيد لمشركي مكة ، وفي هذا تجسيد لسعة عطاء النظم القرآني بتنوع المقصود من الخبر الواحد حسب تنوع حال المخاطبين به تصديقًا وإذعانًا ، أو جحودًا وتكذيبًا.

وهي تعقيب على جحود "عاد" وعتوهم حين قالوا لنبيهم "هود" عليه السلام ـ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأحقاف:٢٢. أي إن كنت صادقًا في وعيدك وإنذارك فعجِّل لنا العذاب على الشرك. فأجابهم بنفي علمه بذلك وأن العلم عند الله تعالى ، وأنه مبلغ عن الله عز وجل ولا يملك الإجابة على مطلبهم ، الذي إن دلَّ فإنما يدلّ على فرط جهلهم :﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ

وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ الأحقاف:٢٣ وهنا يبدأ مشهد النهاية الفارقة:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاث جمل خبرية مترابطة ، تتآزر في إبراز مقصود الآية من التذكير والتسلية ،والتهديد والوعيد،وتختص كل جملة منها بتصوير جزء من المشهد ، وترابطها ناشئ عن توقف وجود الثانية على وجود الأولى ، وشدة ارتباط الثالثة بالثانية لكونها إضرابًا عنها ، كما سيتضح لنا:

الجملة الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ وهي تصف العارض وتوجهه نحوهم ، ورؤيتهم له.

والفاء تفيد ربط ما بعدها بما قبلها وتفرعه عنه ، كما تؤدي معنى التعقيب السريع والفاصل ، الذي وضع حدًّا ونهاية لعناد الكافرين وجحودهم ،وكأن إتيان العذاب كان قريبًا من استعجالهم به ،كما كان مسببًا عن تكذيبهم مبينًا لعظيم جهلهم في أمنهم للعقوبة والانتقام ، وفي عدم إدراكهم لما به كان هلاكهم مع أنه محسوس مشاهد.

والتعبير بـ (لمَّا) يقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما ؛ فجملة: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ تحققت ووجدت عند رؤيتهم العارض.

وأكثر العلماء على أن (لمَّا) هذه تختص بالماضي([1]) ، وهذا ينسجم مع سياق التذكر واستدعاء الحدث واستحضاره بقصد التسلية لنبيه (صلى الله عليه وسلم) والتهديد والوعيد للمشركين من قومه ، ويبرز دورها في ربط أجزاء الكلام وحبكه وإحكام معانيه.

والرؤية هنا بصرية تفيد معنى المشاهدة بالعين ، وإسناد فعل الرؤية لواو الجماعة العائد إليهم لإفادة عموم الرؤية والمشاهدة ؛ مما ينبئ عن حال الترقب والتلهف التي كانوا عليها انتظارًا للمطر الذي يروي الإنسان والحيوان والنبات ، ويلطف جو الصحراء الجاف الحارق.

---

١) مغني اللبيب لابن هشام ٢١٩/١

ولعل البيان القرآني يهدف من ذلك إلى تجلية أمرين:

أحدهما ـ حال القوم في شدة احتياجهم وتعلق نفوسهم بمطرالسماء.

والآخر ـ جهلهم المفرط الذي دفعهم إلى العناد والعتو والمكابرة بطلب العذاب الذي خوفهم منه سيدنا هود عليه السلام،وبين الأمرين مفارقة معنوية ؛ لأن حال ترقب نزول المطر من السماء يقتضي منهم الاستجابة لخبر السماء وتصديق سيدنا هود عليه السلام فيما

جاءهم به. ولكن الجهل أعمى بصيرتهم فجحدوا وعاندوا ، والحاجة غشيت أبصارهم فلم يرقبوا ما لقوا به حتفهم ، فكان في إهلاكهم بهذه الطريقة عذاب نفسي مع العذاب المادي ، وفي ذلك تهكم لاذع يمس شغاف القلوب ؛ ليكون الجزاء وفاقًا للعمل.

والضمير في ﴿ رَأَوْهُ ﴾ يعود إلى ما طلبوه من العذاب حين قالوا: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).والتعبير عنه بالضمير لإفهام السياق إياه بقصد الإيجاز وإحكام التعبير وترابطه ، ولإفادة التفخيم والتهويل.

وقوله: ﴿ عَارِضًا ﴾ حال من الضمير قبله ، وذلك لبيان صورة العذاب وهيئته التي رأوه فيها، حيث بدا لهم في صورة العارض ، وهو السحابة التي تراها في ناحية السماء([1]) وتعرض في أفقها. وتنكيره لبيان نوع العذاب وصورته التي بدا لهم فيها ، والتي تنبئ عن السخرية والتهكم من عقولهم المتبلدة وقلوبهم الغافلة.

وقوله: ﴿ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ صفة للنكرة قبله،والإضافة فيه لا تكسبه تعريفًا لكونه وصفًا لنكرة ، فهي إضافة لفظية تفيد تخفيف اللفظ ولا تفيد تعريفًا([2]) ، والتعبير به لإفادة تأكيد وجهته إليهم ؛ ليزدادوا طمعًا في المطر، ويشتد تعلقهم به ؛ مما يجعل وقع العذاب عليهم أشد وأكثر إيلامًا ؛ لتذوقهم الألم من الأمل ، فيكون عذابا فوق العذاب، وهذا مقصد بياني لصياغة العبارة بهذا النظم المعجب الآسر للعقول المؤثر في النفوس. والله أعلم

---

١) كتاب المطر:ص١٤.

٢) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ١٢/٢.

الجملة الثانية ـ قوله ـ على لسانهم ـ:﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ وهي متعلقة بالجملة الأولى لارتباط وجودها بوجود الأولى؛ لدخول (لمَّا) عليهما.والمقصود من الخبر في هذه الجملة إظهارفرط التفاؤل والاستبشار بهذا السحاب العارض ؛ لما يعقبه من نزول المطر.

فالمطر مستعمل على حقيقته في اعتقادهم المتلبس بالأمل وترقب نزول المطر؛حيث بدا لهم عارضه ودليله؛ فظنوه ممتلئًا ماءً يغاثون به بعد طول القحط ، وقد تبين فساد ظنهم واعتقادهم كما نطقت بذلك جملة الإضراب التالية.

والإضافة في﴿ مُمْطِرُنَا﴾ لفظية لا تكسب اسم الفاعل تعريفا؛ لأنه وصف لنكرة ﴿ عَارِض﴾ فهي تفيد التخفيف اللفظي ، والتعبير بها لتأكيد فرط التفاؤل والأمل والترقب المهيمن على قلوبهم وعقولهم. ولعل المقصود من حكاية قولهم هذا هو وسمهم بالتعجل والوهم المبنيان على النظرة العجلى إلى ظواهر الأشياء ، دون التأني والتدبر في حقيقتها ومآل أمرها.

ومن ثم تأتي **الجملة الثالثة** لتوضيح الحقيقة ، ولتردهم إلى واقع الأمر الذي غفلوا عنه مع أنه كان مطلبهم العاجل حين تحدَّوا هودًا عليه السلام : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

سر التعبير بالإضراب :

فـ "بل" حرف إضراب ، وقد دخل على جملة فيكون معنى الإضراب إما الإبطال، أو الانتقال([1]). وهو هنا إضراب إبطالي يبطل ظنهم في إمطار العارض ويبدده.

فقوله: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ تعبير يصف حال الترقب والرجاء والطمع التي كانوا عليها حين رأوا العارض في السماء ، وفيه إشارة إلى غفلتهم عن ذنوبهم الموجبة لعذابهم، وعن استعجالهم العذاب؛ ومن ثم جاء ردعهم وتبكيتهم بصيغة الإضراب الإبطالي المبدد للآمال المرجوة ،والموقظ من الغفلة ،والمعبر عن حقيقة أمر العارض: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والظاهر أنه حكاية لقول هود عليه السلام.

---

١) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ١٠٣/١.

والمعنى: استيقظوا من غفلتكم وأفيقوا من غيّكم وجهلكم ،فإن هذا الذي ترونه هو مطلبكم الذي استعجلتم إتيانه إليكم تحدّيًا لنبيه ، وصلفًا واغترارًا بقوتكم.

وصياغة جملة الإضراب بهذا الأسلوب لإفادة التقرير والتأكيد ، والتهويل والتفظيع والتبكيت:

أما التقرير فإنه مستفاد من التعبير بالجملة الاسمية المصدرة بالضمير (هو) العائد على العارض الذي رأوه فظنوه غافلين ممطرهم ،فالتعبير به لإبطال اعتقادهم ،وتقرير وتأكيد حقيقة هذا العارض.

وأما التهويل والتفظيع فقد أفاده التعبير باسم الموصول وصلته ، والواقع خبرا عن المبتدأ (هو) ، فهو بيان مجمل لحقيقة ما رأوه يبعث في نفس السامع تشوقا وترقبا لمعرفته تفصيلا بعد الإبانة عنه إجمالا ، فقد حمل هذا البيان المجمل تذكيرا وتبكيتا وتشويقا: تذكيرا بموقفهم ومطلبهم من نبيهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وتبكيتا لهم على غفلتهم وجهلهم ، وتشويقا إلى معرفة كنه العذاب وحقيقته تفصيلا بعد معرفته بطريق الإبهام والإجمال. ومن ثم جاء قوله: (رِيحٌ) أي: هي ريح([1]) بدلا من "ما" أو من "هو" ؛ لإفادة البيان والتفصيل والتوضيح ، كما جاء بصيغة النكرة لتأكيد معنى التهويل والتفظيع ، ولبيان نوع العذاب وأداة الإهلاك والتدمير.

وجملة: ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ صفة لـ (ريح) ؛لوقوعها بعد النكرة ، وهي تصور شدة إيلام العذاب وهوله وفظاعته ؛ وذلك لما فيها من: ـ التعبيربـ"في" الظرفية التي تفيد شدة تلبس العذاب الأليم بهذه الريح ـ وتنكير "عذاب" بقصد التهويل والتفظيع.

ـ ووصفه بـ"أليم" فعيل بمعنى فاعل،أي مؤلِم شديد الإيلام لكل ما مرت به ، عدا "هود" ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه.

وجملة ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ صفة ثانية لـ"ريح" ؛ لبيان شأنها فيما فعلته بهم ، أي: تهلك كلَّ شيء أتت عليه إهلاكًا عظيمًا شديدا سريعا بغتة عن طريق الهجوم ، هذا شأنها العجيب في إهلاك وتخريب كل شيء من الإنسان والحيوان والديار.

---

١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٦٤/٨ . دار الكتب العلمية. بيروت. طبعة أولى١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

ويمكن أن تكون الجملتان استئنافا ، وهذا ما ارتضاه "البقاعي" ـ رحمه الله ـ حين قال: " وهو أعذب وأهزّ للنفس وأعجب"([1])، دون أن يوضح السبب في أن كونهما استئنافا أعجب ، وأهزّ للنفس وأعجب. وحمل الجملتين على الوصفية أقرب إلى تأكيد معنى التهويل والتفظيع المستفاد من تنكير "ريح". والله أعلم.

والتعبير بصيغة المضارع ﴿ تُدَمِّرُ﴾ لحكاية الحدث واستحضار المشهد المفزع الرهيب ؛ ليتحقق المقصود في التذكير والاعتبار.

والتعبير ب "كل" وإضافتها لـ"شيء": ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ؛ لإفادة عموم التدمير واستغراق الإهلاك ، وهو استغراق عرفي ينصرف إلى عموم المدمَّر المفهوم من سياق الكلام ، والمعنى: كلّ شيء من نفوسهم وأموالهم، فهو عام مخصوص([2])، عام باعتبار لفظ "كل" الموضوع لاستغراق أفراد ما بعده منكَّرًا أو معرَّفا([3])،ومخصوص باعتبار المقصود بلفظ "شيء" كما يُفهم من سياق الكلام.

وقوله: ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ حال من الضمير في﴿ تُدَمِّرُ﴾ ، وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كلَّ شيء ، أي تدميرًا عجيبا بسبب أمر ربها؛ أي تسخيره الأشياء لها فالباء للسببية([4]). ويمكن أن يكون التعبير به لأجل الاحتراس أو التكميل([5]) ، فهو يفيد أن الريح فعلت بهم ما فعلت بأمر ربها ؛ لأنه ربما ظن ظانٌ أنها مؤثرة بنفسها([6]) فجاء القيد لتبديد هذا الظن وإزالته ، وتقرير أنها من جنود الله تعالى تتحرك بإذنه ، وتأتمر بأمره شأنها شأن كل ما في الكون. وفيه من الدلالة على عظمة شأنه وعظيم قدره ما لا يخفى ، كما ينبئ بذلك ذكر الأمر والرب والإضافة إلى ضمير الريح ، فكل ما في الكون منوط بأمر بارئه سبحانه.

---

١) نظم الدرر ١٦٩/١٨.

٢) ينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي٣٥/٨. وتفسير البحر المحيط لأبي حيان٦٤/٨.

٣) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ١٦٤/١.

٤) ينظر: التحرير والتنوير ٥٠/٢٦.

٥) الاحتراس : هو أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه.(الإيضاح للخطيب القزويني ص٢٠٣ ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م).

٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ١٦٩/١٨.

وجملة ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ مسببة عما قبلها من عموم التدمير والإهلاك والتعذيب ، وكأن التقدير: جاءتهم فدمرتهم فلم تُبقِ منهم أحدا. فسبب عن ذلك زيادة في التهويل والتفظيع قوله : ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ وهو مصدَّر بفاء الربط والتسبيب، ومفاد هذه الجملة تأكيد أنها لم تُبقِ منهم أحدا، وأنهم قد هلكوا جميعا ، فلا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها ، فهي كناية عن عموم الهلاك لهم. وقد عبرت جملة القصر الواقعة مفعولا ثانيا للفعل "أصبح" عن كل هذه المعاني وأكدت المقصود منها،وهي من قصر الصفة على الموصوف.

وأصبح هنا بمعنى صار، فليس المراد أن تدميرهم كان ليلا ؛ فإنهم دمّروا أيامًا ولياليَ ، فبعضهم هلك في الصباح وبعضهم هلك في المساء ، قال عز وجل: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة:٧ فقد صرَّح البيان القرآني في هذه الآية بما طواه وأضمره في آية الأحقاف ؛ ليتناسب كل بيان مع سياقه ، فسياق سورة الأحقاف وصف وتقريب لكيفية تدمير الريح لكل شيء ، أما سياق سورة الحاقة فهو تفصيل للكيفية وتبيين لفعل الريح المسخرة بأمر من ربها فيهم.

وقد جاء ختم الآيات بهذه الجملة المعبرة بإحكام بالغ مؤثر عن المقصود ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل جزاء عاد نجزي القوم المجرمين. وفي تركيب الجملة بهذا النسق دقائق وأسرار بيانية يمكن إجمالها فيما يأتي:

١ـ كاف التشبيه التي تربط الماضي بالحاضر ، والجزاء الذي نزل على "عاد" فدمرهم وأهلكهم بالجزاء الذي ينتظر المجرمين المتمادين في غيهم وطغيانهم.

٢ـ اسم الإشارة المقترن بلام البعد المفيد للتهويل والتفظيع مما حل بـ"عاد" ، والذي يجسد هذا الهول الذي طارت منه الأفئدة،واندهشت الألباب.

٣ـ الفعل المضارع المقترن بنون العظمة (نجزي) والمنبئ عن استحضار المشهد وتجدده عند تحقق سببه.

٤ـ النص على السبب في الجزاء العراقة والتمادي في الكفر والغي والإجرام ، كما ينبئ عن ذلك التعبير بصيغة اسم الفاعل الواقع نعتا للقوم ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ، وفي هذا تعريض بالتهديد والوعيد لكفار مكة ، وتخويف تحذير لكل الطغاة المتمادين في كفرهم وغيهم.

٥ـ هذه الجملة تحمل في مضمونها تهديدا وإنذارا لمشركي مكة ، وتأكيدا لهول المشهد قبلها وفظاعته ، وتوطئة لما بعدها من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ.....﴾ الأحقاف:٢٦ ، وفي هذا تجسيد لترابط معاني الذكر الحكيم ، وإحكام نظمه وتناغم تراكيبه.

المبحث الثاني: التعبير بالمطر في مقام التذكير بمكر مشركي مكة

إذا كان التعبير بالمطر في الآيات السابقة قد ورد في سياق التذكير بمصير المعاندين والمكذبين لرسل الله تعالى بقصد الحث على الاعتبار والاتعاظ ، وبقصد التعريض بالتهديد لمشركي مكة ، فإن السياق هنا تذكير بمكر قريش وجحودها وتهديد لمشركي مكة بسوء العاقبة. وقد جاء التعبير بالمطر في هذا السياق في موضعين:

أحدهما ـ قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأنفال:٣٢

فالسياق هنا تذكير لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بمكر قريش به وصلفها وجحودها بما جاء به ، وذلك حين كان بمكة قبل الهجرة.

وقد نزلت سورة الأنفال تعقيبا على نصر الله تعالى لنبيه وللمؤمنين يوم بدر ؛ لتربط بين قيم الإيمان ومقتضياته وبين النصر، ولتبيِّن كيف بدَّل الله حال المؤمنين من القلة والضعف حين كانوا بمكة إلى القوة والنصر حين صاروا في المدينة وأصبحوا قوة لا يُستهان بها في الجزيرة العربية.

فالغرض من استدعاء هذه المشاهد التذكير والامتنان.

فقوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ... ﴾**

عطف بالواو على قوله سبحانه:**﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ... ﴾** الأنفال:٣٠ ، من عطف موقف على موقف أو قصة على قصة بقصد التذكير بمشاهد قد مضت اقتضى الحال استدعاءها لتبيان المفارقة بين الماضي والحاضر.

والموقف الأول نوع من المكر وإخفاء المكيدة بالتآمر على قتل النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ ومن ثم قدمه لأهميته وخطورته ، أما الموقف الثاني فهو أسلوب من الجحود بليغ يفضي إلى نفي كون القرآن الكريم حقا من عند الله تعالى ، وقد مهّد له بقوله تعالى: **﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾** الأنفال:٣١ ، وهو يحكي إنكارهم للقرآن ومحاولتهم التهوين من

شأنه والحط من قدره ، كما يجسد تلك النفاجة والصلف منهم وهم تحت وطأة العجز عن مجاراته في باب البيان.

فقولهم: ﴿ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ نوع من الصلف والغرور الزائف المنبئ عن التخبط والهذيان ، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز حتى يفوزوا بالقدح المعلَّى دونه ، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة؟! ([1])

وقيل: قائل ذلك النضر بن الحارث ، حين سمع قصص القرآن فقال: لو شئت لقلت مثل هذا ؛ حيث سمع في بلاد فارس أخبار ملوكهم فزعم أن هذا مثل ذاك ، وانه من جملة تلك الأساطير.([2])

وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ... ﴾** معطوفا على قوله: ﴿ **قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ على أساس أن القائل واحد فيهما ، ويكون قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ استئنافا للحديث عن مكرهم بالقرآن وجحودهم له ، بعد مكرهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم). وإسناد فعل القول في الموضعين لضمير جماعة المشركين ؛ لأنهم ارتضوه وأقروه وأذاعوه بين الناس ، فاجتماعهم عليه سوَّغ إسناد فعل القول إليهم جميعا مع أن القائل واحد ، وهو من باب المجاز العقلي بإسناد ما للبعض إلى الكل ؛ وذلك بقصد إبراز تمالؤهم عليه واجتماع كيدهم ومكرهم على جحود القرآن كما اجتمعوا على الكيد لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولعل التعبير بصيغة الجمع يقوّي القول الأول في عطف المشهد على المشهد ، والجامع بينهما المكر في الفعل أولا ، وفي القول ثانيا. والله أعلم.

فقوله: ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ... ﴾** أي: واذكر حين قالوا هذا القول الذي ينم عن " أسلوب من الجحود بليغ"([3]) ؛ حيث عبروا عن الخبر

---

١) ينظر: الكشاف للزمخشري١٥٥/٢.

٢) ينظر: الكشاف١٥٥/٢

٣) الكشاف١٥٥/٢.

بصيغة الدعاء ، وبنوا صيغة الدعاء على أسلوب الشرط والجزاء القائم على تعلق حصول الجواب بحصول شرطه ، ومرادهم بذلك نفي كون القرآن حقا من عند الله بأبلغ أسلوب. والمعنى: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر.

الدعاء على النفس لإثبات ما يقول الداعي أو يعتقده:

هم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم لتأكيد ما يعتقدون ، والجزم بما يقولون في القرآن من أنه ليس بحق.

والدعاء على النفس مذهب من القول عند العرب يأتون به في كلامهم لإثبات ما يعتقدون وتأكيد ما يقولون ، يقول النابغة:

ما قلتُ من سيِّءٍ أُتيتَ به إذًا فلا رفعت سوطي إليَّ يدي(١)

فقوله: " فلا رفعت سوطي إليَّ يدي" خبر قصد به الدعاء على نفسه بالهلاك إن أتى بشيء يكرهه المخاطب "النعمان". ومقصوده الجزم بنفي إتيانه أي شيء يكرهه أو يغضبه.

وهذه طريقة بالغة في الاحتجاج ، وأسلوب بليغ في تدعيم ما يعتقده المتكلم ، وصحة ما يقوله.

وجريان كلامهم مجري القسم مع جزمهم بأن القرآن ليس بحق يصرف الشرط عن ظاهره المفيد للتردد ؛ ليكون التعبير به كناية عن اليقين بما يعتقدون والجزم بما يقولون في القرآن ، وهذا من فرط جهلهم وعنادهم ومكرهم.

وقد أرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بنفي كون القرآن حقا من عند الله ، فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقا من عند الله ؛ ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله.(٢)

---

١) ديوان النابغة الذبياني ص٢٥ .تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثانية . دار المعارف بالقاهرة

٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٣٢/٩.

واصطفاء التعبير بـ"إن" الشرطية يؤكد اعتقادهم فيه، ويبرز مرادهم في نفي كونه حقا ؛ لأن الأصل فيها عدم اليقين بوقوع الشرط. وكذا التعبير باسم الإشارة (هذا) المنبئ عن تجاهلهم له وتقليلهم من شأنه ، والمؤكد لقولهم: (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

وقد حكى القرآن على لسانهم التعبير باسم الإشارة (هذا) ثلاث مرات في هذا السياق ؛ وذلك بقصد إبراز مقصودهم في جحود القرآن بالتشكيك فيه والتقليل من شأنه ، وهذا أسلوب كل ماكر جاحد للحق عاجز عن مواجهته صراحة ؛ فيلجأ للتشكيك فيه ، والتقليل من شأنه للنيل منه.

والتعبير بضمير الفصل (هو) يقتضي تقوي الخبر، أي إن كان هذا حقا من عندك بلا شك أو ريب. أما تعريف المسند بلام الجنس (الحق) فيفيد الحصر ، وبذا يجتمع في التركيب تقوية وحصر للخبر وهذا يعني أنهم ينفون حقيته كما ينفون حصر الحقية فيه. وعند التأمل ندرك أنهم في الأصل جاحدون منكرون لكون القرآن حقا ، ومن ثم فلا داعي لهم إلى نفي قوة حقيته ولا نفي انحصار الحقية فيه، وإن كان ذلك لازما لكونه حقا ؛ لأنه إذا كان حقا كان ما هم عليه باطلا فصحّ اعتبار انحصار الحقية فيه انحصارا إضافيا ، إلا أنه لا داعي إليه لولا أنهم أرادوا حكاية الكلام الذي يبطلونه ، فجرى تعبيرهم بهذا التركيب ﴿**إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ** ﴾ بقصد محاكاة ما جاء في القرآن منوها بصدقه([1]) ، كقوله تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ آل عمران:٦٢ . وذلك على سبيل التهكم.

وقوله:﴿ **مِنْ عِنْدِكَ**﴾ حال من الحق ، أي منزلا من عندك، ففيه تأكيد لطعنهم في القرآن ؛ لأنه يعني أنهم يطعنون فيه من جهتين: من جهة كونه حقا ، ومن جهة كونه منزلا من عند الله.

وقوله: ﴿ **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ جواب الشرط ، وقد اقترن بالفاء لإفادة شدة الترابط والتلازم بين الشرط وجزائه ، وهذا طلب لإرسال العذاب عليهم وإنزال الحجارة من السماء.

فقولهم: (فأمطر) من أمطر إمطارا ، وقد كثر الإمطار في معنى العذاب في البيان القرآني كما سبق بيانه.

---

١) ينظر: التحرير والتنوير٩/٣٣٢.

وصيغة الطلب (فأمْطِرْ) مستخدمة في معنى الدعاء ، أي فأرسل علينا حجارة من السماء، والمقصود بها: السجّيل. وهذا سر التقييد بقوله: (**مِنَ السَّمَاءِ**) ، كأنه أريد أن يقال: فأمطر علينا السجّيل،وهي الحجارة المسوّمة للعذاب ، فوضع الحجارة من السماء موضع السّجيل على طريق الكناية، وهي كناية عن موصوف ، كما تقول: صبّ عليه مسرودة من حديد ، تقصد درعا.([1]) فعبر عن الموصوف بوصفه المميز له المعبر عن كنهه وحقيقته، فهي حجارة مخلوقة لعذاب من تصيبه ؛ لأن الشأن ان مطر السماء لا يكون بحجارة .

وقوله: ﴿ **أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ عطف على قوله:﴿ **فَأَمْطِرْ**﴾ وحرف العطف "أو" يفيد التنويع،وهو من عطف العام على الخاص ؛ لأن إمطار السجيل نوع من العذاب الأليم ، أي: فعذبنا به أو بنوع آخر من جنس العذاب الأليم.([2])

ووصف العذاب بالأليم زيادة في تأكيد وتحقيق يقينهم بأن المحلوف عليه ليس منزلا من عند الله ؛ فلذلك عرَّضوا أنفسهم لخطر عظيم على أن يكون القرآن حقا ومنزلا من عند الله تعالى.

وهذا وإن كان أسلوب من الجحود بليغ ، إلا أنه ينم عن عقل بليد ، وفكر عقيم ، وعناد ذميم ؛ فكان الأولى أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ولكنه الجهل المقيت ، والضلال المبين. والله أعلم.

الموضع الآخر- قوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا**﴾ **لفرقان:٤٠**

تأتي هذه الآية من سورة الفرقان في سياق تهديد مشركي مكة بسوء العاقبة ؛ وذلك بسبب كفرهم وعنادهم وجدالهم.

ففي هذه الآية تذكير وتهديد وتحذير لهم مما آل إليه أمر قرية "سدوم" إحدى قرى قوم لوط عليه السلام.

---

١) ينظر: الكشاف٢/١٥٥.

٢) ينظر: الكشاف٢/١٥٥.

والمعنى: أن قريشا مروا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة ، فكان ينبغي عليهم أن يعتبروا بما رأوا ، ويتعظوا بما شاهدوا ، ولكنهم كانوا قوما كفرة بالبعث فلم يقع منهم اعتبار أو اتعاظ!!

وقد نظم البيان القرآني هذه المعاني بأسلوب محكم يتسم بالدقة والإيجاز وإصابة الغرض ، وصاغها بعبارات موحية ومعبرة عن حال مشركي مكة في غفلتهم وعدم اعتبارهم بما يرونه مرارًا من آثار عذاب الله ونكاله بقوم لوط.

فقوله: :﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ**﴾ عطف على الأخبار السابقة، وإخبار عن فعل تكرر منهم كثيرا في أسفارهم إلى الشام ، وهو المرو بآثار تلك المدمرة وأهلها بالحجارة التي أمطرت عليها من السماء.

وقد جاء الخبر مؤكدا بلام القسم و "قد" مع أنهم لا ينكرون مضمون الخبر لوقوعه منهم وتحققه بالفعل ، ولكنهم لم يعملوا بمقتضاه من التدبر والتفكير والاتعاظ بما رأيته عيونهم فيؤمنوا ، بل عملوا ما يخالف ذلك من التشكيك في القرآن ، وتكذيب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؛ ومن ثم نزلوا منزلة من ينكر مضمون الخبر. كما أن المقام إلزام بالحجة ودحض لتشكيكهم في القرآن والرسالة ؛ ومن ثم جاء الخبر مؤكدا لإفادة تحقيقه وتقريره.

والفعل (أتوا) يتضمن معنى مرّوا كما يشعر بذلك تعلق حرف الجر "على" به ، أي: مروا عليها مرارا كثيرة.

فقد اكتسب الفعل دلالته من السياقين التركيبي والخارجي ، حيث تضمن معنى مروا لتعديه بحرف الجر "على" في التركيب وتعلقه به ، كما دل السياق الخارجي المتعلق بأسفار قريش إلى الشام على تكرار هذا الفعل منهم مرارا كثيرة. وهذا يؤكد أن الكلمة بنت سياقها تكتسي منه حُلل معانيها وتبدوا في ثوب من المعنى جديد ينسجم مع السياق ، ويدعم الغرض المسوق له الكلام.

وإسناد الفعل لضمير المشركين جميعا مع أن المسافرين للتجارة بعضا منهم ، من باب المجاز العقلي لعلاقة الكلية ؛ وذلك لتحقق علمهم بآثار عذاب الله ونكاله بتلك القرية وبأهلها ، إما مشاهدة لمن سافر ، وإما سماعا متكررا يرقى لدرجة المشاهدة لمن لم يسافر منهم ، فتحقُّق علم الجميع مع عدم عملهم بمقتضى هذا العلم سوغ

اشتراكهم جميعا في الفعل ، وفي ذلك إشارة إلى اشتراكهم جميعا في عدم الاتعاظ والاعتبار ؛ ومن ثم كان التهديد والوعيد لهم جميعا.

و "ال" في القرية عهدية ، أي: تلك القرية المعهودة لهم والتي يعرفونها ويمرون عليها في أسفارهم، وفي هذا تأكيد لإلزامهم بالحجة ، وتقرير لتبكيتهم وتهديدهم.

ووصف القرية بالاسم الموصول وصلته:﴿ **الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ**﴾ للإشارة إلى أنها اشتهرت بمضمون الصلة بين العرب وأهل الكتاب، ولإفادة التهويل والتفظيع من آثار عذاب الله ونكاله الذي دمَّر القرية وأهلها ، كما ينبئ بذلك بناء الفعل للمجهول (**أُمْطِرَتْ**) والتعبير بالمفعول المطلق المضاف إلى وصفه المبين لنوعه (**مَطَرَ السَّوْءِ**) للإشارة إلى نوع من المطر عجيب وغريب لم يألفه الناس ، وهو مطر الحجارة.

فقوله: ﴿**أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ**﴾ كناية عن هلاكهم بالحجارة المرسلة عليهم من السماء ، والمشبهة في نزولها وجمومها المطر في نزوله وجمومه.

وقد علمنا في سياق سابق أن هذه القرية اجتمع على تدميرها وهلاك أهلها نوعان من العذاب:القلب بجعل عاليها سافلها،وإمطار الحجارة من السماء ، فلمَ اكتفى هنا بذكر النوع الثاني دون الأول؟

أقول ـ والله أعلم ـ لعل عقوبة القلب فيها خصوصية لقوم لوط ؛ لانسجامها مع فعلهم القبيح وقلبهم لطبيعة الفطرة البشرية ، ولما كان المقام هنا تهديد ووعيد لمشركي مكة ناسب أن يزجرهم بعذاب إمطار الحجارة من السماء ، خاصة وأن لديهم علما بالحجارة التي أهلكت أصحاب الفيل.

قوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا**﴾ استفها تقريري إنكاري توبيخي ، يقصد به إثبات رؤيتهم إياها في أسفارهم المتكررة؛ مما يقتضي منهم الاتعاظ والاعتبار.

والصورة التركيبية لجملة الاستفهام تتكون من همزة الاستفهام ، و(لم) المقرونة بفاء العطف، فعل الكون الناسخ (يكونوا) وهو فعل مضارع مجزوم بـ"لم" ، والواو اسمه ، وجملة (يرونها) خبره.

وغالبًا ما يتضمن الاستفهام بهذه الصورة تقريرًا بحدوث الفعل ، وإنكارًا لعدم حدوث مقتضاه.([1])

فالاستفهام عن مضمون الجملة المنفية بـ"لم" يتضمن تقريرهم بإثبات رؤيتهم لتلك القرية ، وإنكارًا لعدم حدوث مقتضى هذه الرؤية والمشاهدة ، فهم ينظرونها ويشاهدونها مرارًا في أسفارهم ، ومقتضى ذلك أن يعتبروا ويؤمنوا ، لا أن يشككوا في كلام الله تعالى ، ويكذبوا رسوله (صلى الله عليه وسلم).

فالاستفهام هنا يكشف عن طبيعة النفس المشركة في جحودها ومراوغتها في عدم الإيمان ، مع مشاهدتها لما يقتضي التذكر والاعتبار المفضي إلى الإيمان. كما عن توبيخهم وتبكيتهم على بلادة عقولهم وغفلتهم عن مواطن الاعتبار.

والإضراب في قوله: ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ فيه إثبات للرؤية والمشاهدة ، وتأكيد لعدم العمل بمقتضاها ، وبيان للسبب في ذلك وهو كفرهم بالبعث. وبذا تتآزر جملة الإضراب مع مضمون جملة الاستفهام في إثبات مقصودها، مع الكشف عن السبب في ذلك

وفي هذا إبراز لمدى الترابط والتكامل في تراكيب النظم القرآني ، وتجسيد لتنامي المعنى القرآني وترابط أجزائه وتعانقها في تجلية وإبراز المقصود منه.

وقد تكرر التعبير بفعل الكينونة وجاءت صياغته متناغمة مع المعنى والسياق ؛ حيث عبرت صيغة المضارع (يكونوا) في جملة الاستفهام عن تجدد هذه الكينونة بتجدد الرؤية والمشاهدة مرارًا كثيرة ، بينما أفادت صيغة الماضي (كانوا) تحقق كينونة كفرهم بالبعث وعدم إيمانهم بالعاقبة والحساب ؛ ومن ثم لم ينظروا نظر اعتبار وتذكُّر.

وقوله: ﴿ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ جملة منفية واقعة خبرًا لفعل الكينونة ، وهي تفيد نفي رجاء النشور عنهم. والتعبير بحرف النفي (لا) وما فيه من امتداد في الصوت لتأكيد نفي أي رجاء منهم طوال حياتهم الممتدة وأسفارهم المتعددة. والفعل المنفي

---

١) ينظر: أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي د/ حسني عبد الجليل يوسف ص٨٦ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

(يرجون) ينبئ عن استمرار تجدد عدم رجائهم أو توقعهم للعاقبة يوم البعث والنشور.

ونفي رجائهم النشور تعبير عن إنكارهم البعث ؛ لأن منكر البعث لا يرجو منه نفعا ولا يخشى منه ضررا ، فعبر عن إنكار البعث بأحد شقي الإنكار تعريضا بأنهم ليسوا مثل المؤمنين يرجون رحمة الله تعالى.([1])

وللعلماء في تأويل التعبير بالفعل (يرجون) أقوال:

الأول ـ أن الرجاء مستعمل في موضع التوقع ، أي لا يتوقعون عاقبة ؛ لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن ، فمن ثم لم ينظروا ولم يذَّكروا ومروا بها كما مرت ركابهم. وفيه من التوبيخ والتهكم بهم ما لا يخفى.

الثاني ـ أن الرجاء مستعمل في الأمل ، والمعنى: لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم. وفيه من التيئيس والتبكيت على سوء أعمالهم ما لا يخفى.

الثالث ـ أن الرجاء مستعمل في الخوف ، أي: لا يخافون عاقبة أو نشورا.([2]) وفيه من صفهم بالغفلة و الضلال ما لا يخفى.

وبالتأمل والتدبر نستطيع أن ندرك أن مآل المعنى في التأويلين الأول والثاني واحد ، فعدم توقع العاقبة وعدم الأمل فيها يدفعان إلى عدم التذكر والاتعاظ بما رأوا وشاهدوا. فمعاني الرجاء والتوقع والأمل تنسلُّ من أصل واحد ، وتنبع من معين واحد.

فحمل المعنى على حقيقة الرجاء أولى وأقوى ؛ لأن الإنسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال إلا لرجاء ثواب الآخرة. أما تأويل الرجاء بالخوف ففيه ضعف كما ذكر الإمام الرازي رحمه الله.([3]) والله أعلم.

---

١) ينظر: التحرير والتنوير ٣١/١٩.

٢) ينظر: الكشاف ٩٣/٣.

٣) ينظر: التفسير الكبير ٨٤/٢٤.

المبحث الثالث : التعبير بالمطر في مقام الخوف والحذر من العدوّ

ورد استعمال كلمة "مطر" بصيغة النكرة المجرورة ، في مقام الخوف والحذر من العدوّ في قوله تعالى :**{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}. النساء: (١٠٢)**

سياق الأية:

يأتي التشريع ضمن مقاصد سورة النساء التي عني النظم القرآني بتبيانها في حالي السِّلم والحرب، كتشريعات: المواريث ، والعلاقات الأسرية والاجتماعية في حال السلم ، وكتشريعات: الجهاد ، وصلاة القصر ، وصلاة الخوف في حال الحرب.

وهذه الآية تُشرِّع لصلاة الخوف جماعة(١) ، وتُبين كيفيتها ،وذلك عند مواجهة العدوّ في القتال. وقد شرع الله عز وجل في هذا المقام ثلاثة أمور على سبيل الرخصة:

الأول ـ رخصة قصر الصلاة عند الخوف بقصد دفع المشقة ، وذلك في قوله تعالى: { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَٰوةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً } النساء: (١٠١).

---

١) اتّفق العلماء على أنّ هذه الآية شرعت صلاة الخوف. وأكثر الآثار تدلّ على أنّ مشروعيتها كانت في غزوة ذات الرّقَاع بموضع يقال له: نَخلة بين عسفان وضجنان من نجد، حين لقوا جموع غطفان: محارب وأنمار وثعلبة. وكانت بين سنة ستّ وسنة سبع من الهجرة، وأنّ أوّل صَلاة صلّيت بها هي صلاة العصر، وأنّ سببها أنّ المشركين لما رأوا حرص المسلمين على الصلاة قالوا: هذه الصلاة فرصة لنا لو أغرنا عليهم لأصبناهم على غِرّة، فأنبأ الله بذلك نبيّه صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية. (ينظر: تفسير ابن كثير ٧٢٣/١ والتحرير والتنوير ١٨٥/٥).

الثاني ـ رخصة صلاة الخوف في جماعة ، وقد بيّن القرآن صفتها وكيفيتها في الآية التي بين أيدينا.

الثالث ـ رخصة وضع الأسلحة عند المشقة ، وذكر للمشقة سببين: أحدهما ـ المطر. والآخر ـ المرض.([1])، وذلك في هذه الآية أيضا.

فبعد أن أجمل القول في الآية السابقة عن مشروعية قصر الصلاة عند خوف الفتنة من الذين كفروا: { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَٰوةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً } النساء: (١٠١).

بيّن ما أجمله بطريق العطف والتفريع والتفصيل المصور لكيفية قصر الصلاة عند الخوف من العدوّ ، حيث الضرورة التامة ؛ ومن ثم تخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بطريق السنة ؛ وذلك " لمزيد حاجتها إليه ،لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية "([2]).

فالآية الأولى بيَّنت قصر الصلاة كمَّاً وإجمالا للضاربين في الأرض عموماً عند الخوف ، أما الثانية فبينت حال قصر الصلاة وكيفيتها ، عند الخوف من الأعداء في ساحة المعركة والقتال ؛ فهذه حالة خاصة تستدعي مزيداً من التفصيل والتوجيه إلى الأخذ بأسباب الحذر ، مع أداء الصلاة بكيفية تناسب الموقف ،وتنسجم مع المقام ؛ لئلا يكون للكافرين سبيل إلى إلحاق الأذى بالمؤمنين وهم يصلون.

والتفصيل بعد الأجمال من الأساليب الكاشفة لحقيقة المفصّل ومنزلته من المجمل ، المبينة لهيئته ووصفه المميز له ، والذي أدي إلى إفراده بالذكر مع انتظامه في سلك المجمل ؛ وبذا يتضح لنا خصوصية الحالة والموقف الذي نزلت فيه هذه الآية بنظمها المحكم وأسلوبها الكاشف والمنبئ عن مقصودها في التوجيه والتيسير الممزوجين بالتحذير من عدوٍّ متربص " **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** " .

---

١) ينظر: التحرير والتنوير للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور

٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٢٢٦/٢ ط: إحياء التراث. بيروت.

فقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ صلّى بالمسلمين الظهر يوم ذات الرقاع،فقال المشركون:قد كانواعلى حال لو أصبنا غرّتهم،ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: **:{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ}**الحديث([1]).

نظم الآية وبنيتها التركيبية:

اعتمد البيان العليّ على أسلوبي الخبر ، والإنشاء (الأمر) في تبيان المعاني والأحكام المشتملة عليها هذه الآية ، حيث تآزر الأسلوبان وامتزجا في بناء تركيبي محكم ؛ لتصوير مشهد رباني يفيض رحمةً وتوجيهاً وتعليماً ،وتحذيراً وتقويةً للمسلمين في حال الشدة عند لقاء العدوّ في ميدان القتال ، وقد تجلّى هذا الامتزاج من بداية نظم الآية الكريمة ؛ حيث صُدرت بقوله تعالى:**{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ}** ، فهذ إخبار عن فعل يتحقق ويقع منهم بعد نزول الآية ، وأمر بكيفية وقوعه وبما يقتضيه من حمل الأسلحة ،وأخذ الحذر. ينطق بذلك تصدير الكلام بـ"إذا"وهي ظرف للمستقبل مضمنة معنى الشرط([2]) ، والفعل المقترن بلام الأمر في : "فلتقم" ، "وليأخذوا".

وامتزاج الخبر والإنشاء في بناء المعاني في الآية ينبئ عن غاية يهدف البيان القرآني إلى تبيانها في هذا المقام ، وهي: الجمع بين التثقيف والتكليف في توجيه هذه الأمة وتعليمها أمر دينها ؛ فالإخبار بأمور لا يعلمها المخاطب أو لا يقف على كنهها هو تثقيف لقلبه كي

يطمئن ، ومعرفة لعقله كي يستنير ويعبد ربه على علم. أما التكليف فيقتضي ــ في الغالب ــ توجيهاً بالأمر أو النهي ، وهذا ما عبر عنه البيان العليّ في هذه الآية:

---

١) رواه أحمد في مسنده ٥٩/٤ . والحاكم ٣٣٧/١ عن أبي عياش الزرقي . قال ابن كثير: هذا سياق غريب جداً ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش ،وذكر القصة."تفسير ابن كثير ٧٢٣/١"

٢) مغنى اللبيب ـ جمال الدين بن هشام الأنصاري ٨٤/١ ط: دار إحياء الكتب العلمية (عيسى الحلبي) القاهرة (د.ت).

تأمل الأخبار في قوله تعالى:

ـ (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً)، والغرض من هذا الخبر التحذير والتنبيه.

ـ (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ)،والغرض من هذا الخبر دفع المشقة بالتيسير الممزوج بالتحذير.

ـ (إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينً)، والغرض من هذا الخبر دفع توهم غلبة الكافرين ، بتعريف المؤمنين بمآل المعركة.

فهي تحمل تنبيهاً للمؤمنين ، وتوجيهاً لهم برفع الحرج عنهم، وتقوية لقلوبهم وطمأنة لهم على مصير المعركة بينهم وبين الكافرين ، وهذه معانٍ تثقيفية ترمي إلى تثبيت المؤمنين وتقوية قلوبهم في ساحة المعركة.

وتدبر أساليب الأمر في قوله سبحانه :

ـ (فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ).

ـ (.... وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ).

تدرك أنها تجسد تكليفاً وتعليماً وتحذيراً للمؤمنين ،عند الأخذ بالرخصة في موقف المعركة والمواجهة العسكرية مع الأعداء.

تدبر دلالة التعبير بأدوات الشرط في الآية:

وقد جعل الإمام عبد القاهر من حسن النظر في نظم البيان، النظر في مقام "إذا"،ومقام "إن"،ومقام "لو"،وما يقتضيه وما يفيده.[1]

(١) ينظر: دلائل الإعجاز ص ٨٢.

وظاهر كلام النحاة يشعر بأن (إذا) ظرف للمستقبل مضمنة معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية،(١) وأنها لا تدخل إلا على المتيقن وما في معناه نحو: إذا طلعت الشمس،وقول أبى محجن الثقفى(٢): (من الطويل)

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروىِّ عظامى بعد موتى عروقها

وذلك لكونها للزمن المعين بالإضافة على مذهب الأكثر، ولم يجزموا بها في الاختيار لعدم إبهامها، كالشروط، ولذلك وردت شروط القرآن بها كقوله تعالى: **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾(التكوير:١) ونظائرها في القرآن؛ لكونها محققة الوقوع ومن ثم امتنع دخول (إذا) على المشكوك فيه إذا لحظت فيه الظرفية؛ لأن المعنى حينئذ التزام الجزاء في زمان وجود الشرط، والتزام الشيء في زمان لا يعلم وجود شرطه فيه ليس بالتزام.(٣)

أما (إن) فلا تدخل إلا على مشكوك فيه؛ لأنها تفيد الحث على الفعل المشروط لاستحقاق الجزاء، ويمتنع فيه لامتناع الجزاء، وإنما يحث على فعل ما يجوز ألا يقع، أما ما لابد من وقوعه فلا يحث عليه ؛ولهذ جاء التعبير بـ"إن" في قوله سبحانه:{ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ} ؛ للإشارة الى ندرة تحقق الأذى بسبب المطر ، وإلى قلة حدوث المرض للفرسان في سياق القتال ؛حيث يسبقه استعداد بدني ، فإن حدث القليل ،وتحقق النادر فلا حرج في وضع الأسلحة لمن أصيب بذلك ، مع اليقظة وأخذ الحذر.

يؤكد ذلك قوله تعالى﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ** ﴾(الأعراف:١٣١).

---

(١) مغنى اللبيب ـ جمال الدين بن هشام الأنصاري ٨٤/١ ط: دار إحياء الكتب العلمية (عيسى الحلبي) القاهرة (د.ت).

٢) شاعر وفارس عربي مسلم مغوار من بني ثقيف، شهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص. والبيت في ديوانه ص٧٢ مطبعة الأزهار البارونية ـ مصر(د.ت).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشى ٢٠٠/٤-٢٠١. ط.المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت(د.ت).

فقد جيء بـ(إذا) في جانب الحسنة وبـ(إن) في جانب السيئة؛ لأن المراد بالحسنة هنا جنس الحسنة، ولهذا عرّفت، وحصول الحسنة المطلقة مقطوع به، فاقتضت البلاغة التعبير بـ(إذا).

وجيء بـ(إن) في جانب السيئة؛ لأنها قليلة ونادرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة، كالمرض بالنسبة إلى الصحة، والخوف بالنسبة إلى الأمن.(١) وفي ذلك دلالة واضحة على جحود بنى إسرائيل إنعام الله ـ جل وعلا ـ عليهم بالخيرات الوفيرة، وتبرمهم من أدنى سيئة تقع بهم.

فقد أفادت (إذا) هنا تأكيد تحقق وجود النبي صلى الله عليه وسلم ـ بين المسلمين وقيامه بتأدية صلاة الخوف بالكيفية التي بينها لهم المولى عز وجل في هذه الآية، كما يومئ إلى ذلك التعبير بصيغة الماضى (كنت) ، (فأقمت) ؛ فحضور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم وإمامتهم في صلاة الخوف محقق الوقوع في المستقبل.

أما "لو" فهي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره(٢)، وقد جاءت في قوله تعالى: (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً)، وهو إخبار عن أمنية ورغبة حثيثة وتأهب وترقب من الكافرين لغفلة المسلمين عن أسلحتهم فيهجمون عليهم هجمة تقضي عليهم.

فقوله سبحانه:"ودَّ الذين كفروا" أي: أحبوا وتمنوا(٣) لو تغفلون...

فـ "لو" هنا حرف شرط(١) غيرجازم يفيد تعليق حصول مضمون الجزاء لحصول مضمون الشرط ، مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء. وأصل "لو" أن

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشى ٤/٢٠٠-٢٠١.

٢) ينظر: الكتاب لسيبويه ٤/٢٢٤ ت/عبدالسلام هارون.مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط:ثانية١٤٠٢هـ ١٩٨٢م. وقد ورد عن ابن مالك في "لو" ثلاثة أقوال:

أ- "لو": حرف شرط يقتضي نفي مايلزم لثبوته ثبوت غيره. ب ـ "لو حرف شرط يقتضي امتناع مايليه واستلزامه لتاليه". ج ـ "لو" حرف يدل على امتناع تالٍ يلزم لثبوته ثبوت غيره. (ينظر: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك ص٢٤٠. ت:محمد كامل بركات ط:دار الكتاب العربي١٣٨٧هـ١٩٦٧م. والجنى الداني للمرادي ص٢٧٥ ت: فخرالدين قباوة ،ومحمد نديم فاضل. المكتبة العربية بحلب.طبعة أولى١٩٧٣م.

٣) ينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم ٢/١١٦٩ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

تدخل على الماضي، تقول: لو جاءني زيد لأكرمته. معلقاً الإكرام بالمجيء مع القطع بانتفائه فيلزم انتفاء الإكرام. فاستعمال "لو" في المضارع هنا لتنزيله منزلة الماضي لصدوره عمن لا خلاف في إخباره وهو الله تعالى الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ولتعلقه بالفعل الماضي"ودّ " المنبئ عن تحقق رغبة الكافرين واستقرار أمنيتهم في القضاء على المسلمين.

ويمكن أن تكون جملة الشرط في محل نصب مفعول به للفعل "ودّ" أي: ودوا غفلتكم عن أسلحتكم... وذلك على قول من اعتبر"لو" في مثل هذا الموضع مصدرية، وتكون هي وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول به للفعل "ودّ". والتعبير بالفعل المضارع لإفادة استمرار أمنيتهم في غفلة المسلمين، وفي هذا تأكيد لشدة العداوة التي قررها البيان القرآني في تذييل الآية السابقة بقوله سبحانه: (إنَّ الكافرينَ كانوا لكُم عدوًّا مبيناً).

ومما سبق يتبين لنا دقة النظم القرآني في التعبير بأدوات الشرط الثلاثة: (إن ، وإذا ، ولو) ، وفي إيثار التعبير بكل منها في موضعها المناسب حيث يقتضيها السياق ، كما ينكشف لنا أثر أسلوب الشرط في بناء المعاني القرآنية.

أسلوب الشرط وأثره في تجلية المقصود في الآية:

والشرط في اصطلاح النحاة: ما دخل عليه شيء من الأدوات المخصوصة الدالة على سببية الأول ومسببية الثاني ذهناً أو خارجاً، سواء كان علة للجزاء مثل:"إن

---

١) وللنحاة في وقوع "لو" بعد الفعل :ودَّ" أو "يودّ" وما في معناهما أقوال ثلاثة: أن تكون حرفا لما كان سيقع لوقوع غيره (أي شرطية) ، وأن تكون مصدرية فتكون هي وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول به للفعل"ودَّ " ، وأن تكون للتمني والجملة في موضع مفعول على الحكاية. (ينظر: مغني اللبيب لابن هشام،٢٠٥/١ والكشاف للزمخشري ١/ ١٥٥ والبحر المحيط لأبي حيان ٤٨٢/١ ط.دار الكتب العلمية.بيروت. ط.أولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

كانت الشمس طالعة فالنهار موجود أو معلولا مثل: إن كان النهار موجوداً فالشمس طالعة" أوغير ذلك مثل: إن دخلتِ الدار فأنتِ طالق.([1])

ومفاد هذا التعريف أن تحقق الشرط علامة على وقوع الجزاء، وهذا ينسجم مع تفسير الشرط في اللغة بمعنى العلامة([2])، وأن الشرط اللغوي من قبيل الأسباب؛ أي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته.([3])

وكون الشرط من قبيل الأسباب يقتضي إفادته للتخصيص([4])؛ أي أن الشرط مخصص لعموم أحوال الجزاء. فإذا قلت: "إن طلعت الشمس فالبيت مضيء " فهم منه أنه لا تتوقف إضاءته إلا على طلوعها فنزل الشرط منزلة تخصيص العموم بالاستثناء.

ولعل هذا ما أغرى الذين تمسكوا بظاهر نص الآية فلم يروا صلاة الخوف بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وذكروا لذلك سببين:

الأول ـ أن الكلام خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

والآخر ـ أنه قد قيد الصلاة بهذه الكيفية بكونه فيهم.

وهذا فهم لظاهر النص دون التعمق في دلالات نظمه وتراكيبه، فمن المعلوم أن الآية تحمل خطاب تشريع لرخصة في مقام يتكرر كلما واجه المؤمنون الكافرين أعداءَ الدين في أي زمان ومكان، وخطاب التشريع يشمل النبي (صلى الله عليه وسلم) وأئمة المسلمين وعامتهم من بعده.

---

١) ينظر: شرح التلويح على توضيح التنقيح لسعد الدين التفتازاني ٢٧٩/١ ط: محمد علي صبيح. القاهرة.

٢) القاموس المحيط للفيروزأبادي "شرط" باب الطاء فصل الشين. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٣) ينظر: شرح التلويح على توضيح التنقيح لسعد الدين التفتازاني ٢٨٠/١

٤) القول بإفادة الشرط التخصيص هو مذهب المالكية والشافعية والحنابلة، وخالفهم الحنفية في ذلك. (ينظر: دلالة الألفاظ عند الأصوليين دراسة بيانية ناقدة د/ محمود توفيق سعد ص٢٧٣ مطبعة الأمانة. الطبعة الأولى١٤٠٧هـ ١٩٨٧م).

وجمهور أهل العلم أن المقصود بالخطاب النبي (صلى الله عليه وسلم) والأئمة الحاملين رسالته من بعده ؛ ولذلك جزم جمهور العلماء بأنّ هذه الآية شرعت صلاة الخوف للمسلمين أبداً. ومحمل هذا الشرط عندهم جار على غالب أحوالهم يومئذٍ من ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم لغزواتهم وسراياهم إلاّ للضرورة ، فليس المراد الاحترازَ عن كون غيره فيهم ولكن التنويهَ بكون النبي فيهم. وإذ قد كان الأمراء قائمين مقامه في الغزوات فالذي رخّص الله للملسمين معه يرخّصه لهم مع أمرائه، وهذا كقوله تعالى:{ **خذ من أموالهم صدقة** }[التوبة: ١٠٣].([1])

وفي نظم الآية ما يؤكد ذلك:

أولاً ـ اصطفاء التعبير بـ" إذا " التي هي ظرف للمستقبل مضمنة معنى الشرط ، فأصل معناها: الظرفية في المستقبل ، أما الشرط فهو متضمن فيها وليس معنى مستقلا بذاته ؛ ومن ثم فلا معنى لكونه قيداً مخصصاً لصلاة الخوف بكونه فيهم ، بل إن هذا الشرط المتضمن يحمل عند جمهور أهل العلم على غالب أحوال المسلمين يومئذ من ملازمة النبي (صلى الله عليه وسلم) لغزواتهم وسراياهم إلا للضرورة ، فليس المقصود من الشرط الاحتراز عن كون غيره فيهم ، بل التنويه بكونه فيهم تكريما له، وتثبيتا لهم وتعليما كي يلزموا صحبته في حياته ، ويهتدوا بهديه بعد وفاته (صلى الله عليه وسلم).

ثانياً ـ التعبير بصيغة الماضي عن المستقبل في فعلي الشرط: (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ) لتأكيد تحقق وقوع الفعلين ،

فحضور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم ، وإمامتهم في صلاة الخوف محقق الوقوع في المستقبل.

وتعدد الشرط عن طريق العطف بالفاء ؛ لإفادة الجمع والاقتران مع الترتيب ، أي أن إقامته الصلاة لهم مترتبة على حضوره بينهم ، فالفعلان متلازمان على الترتيب ، وهذا يؤكد حمل الشرط على التنويه والتنبيه بكونه فيهم ، وليس الاحتراز عن كون غيره فيهم.

---

١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨٥/٥.

فتعدد فعل الشرط دون أداته مع العطف بالفاء جعل الترتيب مطلبا بيانياً مع الاقتران والجمع ، ولهذا لايجوز تقدم الفعل الثاني (المعطوف) على الأول(المعطوف عليه).

وقد ذكر "ابن القيم" أنه إن قال قائل: " إن خرجت فلبست فعليّ نذر" لايجب عليه النذر إلا باللبس بعد الخروج، فإن تقدم اللبس على الخروج لم يجب عليه شيء ، على الرغم من الجمع بينهما ؛ حيث روعي الترتيب زيادة على الاقتران ، ولعل ذلك لغياب "إن".([1])

ثالثاً ـ إسناد فعل الجواب لطائفة منهم: (فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ)، مع تقييد فعلهم بكونه معه تكريما وتشريفا ، وحثا لهم على اتباعه والاقتداء به (صلى الله عليه وسلم)، والمقصود تعليمهم كيفية صلاة الخوف؛ كي يقوموا بأدائها عند حصول مقتضاها في أي زمان ومكان، فـ"صلاة الخوف تفعل عند الأنس بحضرته كما تفعل عند الاستيحاش بغيبته صلى الله عليه وسلم، فجوازها لقوم ليس هو صلى الله عليه وسلم فيهم مفهوم موافقة".([2])

في نظم الآية إيجاز بديع:

وقد اشتملت الآية على إيجاز بالحذف بديع دلّ عليه ما بعده من الكلام، وذلك بقصد الاختصار. والمحذوف أمران : أحدهما ــ جواب الشرط ، والآخر ـ الجملة المعطوفة على قوله سبحانه: (فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ)؛ لأنه يُفهم منه أن هناك طائفة أخرى ينبغي أن تقف أمام العدو ، والتقدير: فاجعلهم طائفتين، فلتقم طائفة منهم معك ولتقم الطائفة الأخرى وجاه العدو وأمامه حتى لايأخذهم على غرة. فالفاء في قوله تعالى: (فلتقم طائفة) تفصيلية تشير إلى المجمل المحذوف قبلها، وهو جواب الشرط أي: وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فاجعلهم طائفتين. ثم فصَّل الطائفتين.

---

١) فإن تكررت "إن في الفعل الثاني، فقال: " إن خرجت وإن لبست فعليّ نذر" فإنه يجب بأحدهما تقدّم أو تأخر. (ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٥٨/١ ـ ٥٩ نشر:دار الكتاب العربي. بروت.(د.ت). ودلالة الألفاظ عند الأصوليين د/ محمود توفيق ص٢٩٢).

٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي٣٨٠/٥.

والمحذوف الثاني المعطوف على جملة (فلتقم...) يفهم من سياق الكلام ويدل عليه النظم ؛حيث صرح به في قوله تعالى: (وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ ...) ، فإنه دليل على أن الطائفة الأولى الفاتحة معه للصلاة يقابلها طائفة أخرى في مواجهة العدو. وإيجاز الحذف يكون بحذف شيء من أصل الكلام يدل عليه المذكور.([1]) والغرض من الحذف هنا الاختصار فراراً من العبث لظهور المراد.([2]) ، ولوجود ما يدل على المحذوف في الكلام نفسه ؛ ولهذا كانت نكتة الحذف هنا الاختصار.

وقد ذكر العلامة الدسوقي أن الاختصار المجرد عن النكتة المعنوية يعني أن حذف جواب الشرط قد يكون لنكتة لفظية فقط ، وهي الاختصار ، وإنما كان الاختصار نكتة موجبة للحذف فراراً من العبث لظهور المراد.([3]) ومعلوم أن حذف ما يفهم من سياق الكلام أو مايدل عليه صريح الكلام مطلب بياني في لغتنا العربية، يهدف إلى إحكام النظم وتأدية المعنى المراد بأوجز عبارة، وهذا يعنى أن نكتة الاختصار وإن كانت لفظية شكلا،إلا أنها معنوية تركيبا ونظما بما تسهم به في إحكام التركيب وتأدية المعنى بعبارات مركزة تنأى بالكلام عن العبث والحشو الزائد.

وقد أجملت الآية ما تصنعه كلّ طائفة في بقية الصلاة ؛ وذلك لإفهامه من السياق ودلالة نظم الآية عليه ، فدلّ المذكور على المحذوف دلالة لزوم وإفهام ؛إذ يلزم من ذكر المذكور إفهام المضمر ذكره لدلالة السياق عليه ، وهو ما نطقت به السنة في حديث صلاة الخوف يوم ذات الرقاع.([4]).

---

١) والفرق بين إيجاز الحذف وإيجاز القِصَر: أن إيجاز القصر يؤتى فيه بلفظ قليل يؤدي معنى لفظ كثير غيره. أما إيجاز الحذف فيُترَك فيه شيء من ألفاظ التركيب مع إبقاء غيره بحاله. (ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي١٩٠/٣ ."ضمن شروح التلخيص".ط: دار السرور. بيروت

٢) ينظر: مواهب الفتاح لليعقوبي ١٩٣/٣ (ضمن شروح التلخيص)..

٣) ينظر: حاشية الدسوقي على شرح السعد ١٩٣/٣ (ضمن شروح التلخيص).

٤) ذهب جمهور العلماء إلى أنّ الإمام يصلّي بكلّ طائفة ركعة، وإنّما اختلفوا في كيفية تقسيم الصلاة: بالنسبة للمأمومين. والقول الفصل في ذلك هو ما رواه مالك في «الموطأ»، عن سهل بن أبي حثمة: إنه صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف يوم ذات الرقاع، فصفّت طائفة معه وطائفة وِجاه العدوّ، فصلّى بالذين معه ركعة ثم قام، وأتمّوا ركعة =

وحذف ما يرشد إليه سياق الكلام أو تدل عليه قرينة فيه طبع أصيل في لغة العرب، وأعلاها لغة القرآن الكريم، وسر من أسرارها، وقد قالوا:(أصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسامع، وتعوّل على إثارة حسه، وبعث خياله وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة ويفطن إلى معانى الألفاظ التى طواها التعبير)[1]

كما أشارت الآية إلى أنّ صلاة النبي صلى الله عليه وسلم واحدة؛ لأنّه قال: { فليصلوا معك }. فجعلهم تابعين لصلاته، وذلك مؤذن بأنّ صلاته واحدة، ولو كان يصلّي بكل طائفة صلاة مستقلّة لقال تعالى فلتصلّ بهم.([2])

فتأمل معي هذا النظم الموجز المحكم المترابط تركيباً ومفهوماً ؛ وتذوق سر جماله وإعجازه البياني العليّ.

دلالة تكرار أسلوب الأمر في الآية:

الأمر عند جمهور البلاغيين:" طلب فعل غير كف بالقول على جهة الاستعلاء".([3])

=لأنفسهم ثم انصرفوا فوقفوا وِجاه العدوّ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت له، ثم سلّم، ثم قضوا الركعة التي فاتتهم وسلُّموا وهذه الصفة أوفق بلفظ الآية، والروايات غيرُ هذه كثيرة.(الموطأ للإمام مالك ص٩٨ باب صلاة الخوف. رواية محمد بن الحسن الشيباني.تحقيق/د/عبدالوهاب عبد اللطيف. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.الطبعة السابعة١٤٢٦ه

(١) خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى / ص ١١١/ ط. الثالثة مكتبة وهبة.

٢) وبهذا يبطل قول الحسن البصري: بأنّ رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ صلّى ركعتين بكلّ طائفة، لأنّه يصير متمّا للصلاة غير مقصّر، مما يتعارض مع مقصود الآية ومفهومها.(ينظر: التحرير والتنوير١٨٦/٥)

٣) في اشتراط الاستعلاء أو العلو أو أو هما معاً أو عدم اشتراطهما أربعة مذاهب للعلماء .(تنظرفي: حاشية الدسوقي ٣٠٩/٢ (ضمن شروح التلخيص). والفرق بين العلو والاستعلاء: أن العلو هو اعتبار الآمر نفسه عاليا في حقيقة الأمر وإن كان أداء الطلب على غير هيئة الاستعلاء. أما الاستعلاء فناظر إلى صورة الأداء وكيفية الأمر، أي من غير تذلل وخضوع.(ينظر:مواهب الفتاح لابن يعقوب ٣٠٩/٢ (ضمن شروح التلخيص).

وقد جاءت صورة معنى الأمر في الآية بصيغتين:

إحداهما ـ صيغة المضارع المقترن بلام الأمر(لتفعل)([1])، وقد تكررت ست مرات في هذه الآية:(فلتقم ـ وليأخذوا ـ فليكونوا ـ ولتأتِ ـ فليصلوا ـ وليأخذوا).

والأخرى ـ صيغة فعل الأمر(افعل)، وجاءت مرة واحدة ،في قوله تعالى: (وخُذوا حِذْرَكُم).

ولكل صيغة منهما خصوصية في البيان القرآني، فصيغة(لتفعل) يغلب استعمالها في الدلالة على حقيقة معنى الأمر أكثر من دلالتها على غيرها، بينما تستعمل صيغة(افعل) في الدلالة على غير حقيقة معنى الأمر كثيراً جداً، بل هي متنوعة الدلالة ومعانيها السياقية متداخلة ؛ مما يقتضي من المتدبر المتذوق دقة ووعياً بدقائق الوجوه الدلالية لهذه الصيغة. وفي هذا ما قد يعرب عن أن صيغة(لتفعل) لما كانت هي الأصل في الوضع الأول([2]) وأقل استعمالا كانت أليط بحقيقة معنى الأمر، بينما صيغة(افعل) أقدر على أن تتسع لدلالات عديدة على لاحب مسافات متباينة؛ ومن ثم كثر استعمالها في البيان القرآني.([3])

ولما كانت الآية التي بين أيدينا تحمل تشريعا لرخصة اقتضتها الضرورة، وبيانا وتعليما لكيفية أداء هذه الرخصة ، وكان الآمر والمعلّم هو الله تعالى، فقد كثر

---

١) اختلف العلماء في بيان صيغة الأمر في (لتفعل)، أهي عنصر واحد هو المضارع نفسه واللام قرينة، أم هي من المضارع واللام معا.(ينظر:مواهب الفتاح لابن يعقوب ٣١١/٢). وتحقيق هذا عائد على النظر في الدلالة حين تحذف لام الأمر، أيكون حذفاً لقرينة مقالية أم حذفا لعنصر من عناصر الصيغة. الحذفان في لسان العربية سائغان شائعان، بل قد تُحذف الصيغة كلها كما تراه في حذف أداة الاستفهام والنداء مثلا. (ينظر: صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم د/ محمود توفيق سعد ص١٧ مطبعة الأمانة.ط/أولى١٤١٣هـ ١٩٩٣م).

٢) ذهب الكوفيون إلى أن صيغة المضارع المقترن بلام الأمر(ليفعل) هي أصل صيغ الأمر؛ إذ الأمر معنى من المعاني وشأنها أن تفاد بالحروف ، كما في الاستفهام واالنفي والنهي والتمني.... وقد رفض البصريون ذلك ودفعوه.(ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات بن الأنباري ٥٢٤/٢(مسألة٧٢) ت/ محمد محي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة بالقاهرة. الطبعة الرابعة١٣٨٠هـ ١٩٦١م.)

٣) ينظر: صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم د/محمود توفيق سعد ص٣٥.

استعمال صيغة المضارع المقترن بلام الأمر؛ وذلك لأنها أوجب وأشدّ تأكيدا في نفس السامع، ففيها من المبالغة في الالتزام ما فيها، على نحو ما نراه في صيغة التعجب كما في قولك:"أحسن به".([1])

فتكرار التعبير بها فيه حث على الامتثال لتلك الأوامر التي من شأنها قوام حياتهم وإرضاء ربهم في هذا المقام ، فالتهاون في شيء منها فيه خطر داهم على حياة المؤمنين في هذا الموقف. فطبيعة المعاني المأمور بها من إقامة الصلاة بهذه الكيفية، ومن أخذ السلاح والحذر، تقتضي اصطفاء التعبير بهذه الصيغة لما فيها من زيادة الحث والتحريض على الامتثال في مقام التوجيه والتربية الممزوجين بالتنبيه والتحذير.

أما صيغة الأمر(افعل) في قوله سبحانه: (وخُذوا حِذْرَكُم) فقد وردت في سياق رخصة وضع الأسلحة بسبب مطر أو مرض قد يعيقهم عن حمل أسلحتهم، فالرخصة مقيدة بسبب وحصولها معلق على حصوله وتحققه. والمعنى: أنه لما رخص لهم في وضع السلاح حال المطر وحال المرض أمرهم مرة أخرى بالتيقظ والتحفظ والمبالغة في الحذر، لئلا يجترىء العدو عليهم احتيالاً في الميل عليهم واستغناماً منهم لوضع المسلمين أسلحتهم ؛ ومن ثم كان عطف فعل الأمر بالواو على جملة نفي الحرج والإثم في وضع الأسلحة عند تحقق شرطه وقيده، وذلك لتأكيد التحذير والتنبيه من الغفلة والإفراط في الأخذ بالرخصة ، والحث على اليقظة الدائمة على كل حال، حتى لايجعلون للكافرين سبيلا لإلحاق الضرر بهم.

ففي التعبير بها دلالات وإيحاءات متنوعة جعلت أهل العلم يقولون بدلالة الآية على وجوب الحذر عن العدو، فيدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة، وبهذا الطريق كان الإقدام على العلاج بالدواء والعلاج باليد والاحتراز عن الوباء وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجباً والله أعلم.([2])

---

١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري١٨٢/٢ .المكتبة التوفيقية بالقاهرة ١٣٩٩هـ. ومعاني القرآن للفراء٣١٤/٢ ت:محمد علي النجار.ط/ عالم الكتب بيروت.١٤٠٣هـ.

٢) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٨/١١ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى١٤٠١هـ .

أسرار التعبير بحرفي العطف: (الواو- والفاء):

تكرر التعبير بحرفي العطف "الواو" و"الفاء" في أكثر من موضع في هذه الآية ؛ وذلك لأسرار ودقائق قصد البيان القرآني تجليتها وإبرازها:

الـــواو: وهي لمجرد الجمع المطلق[1] ؛ أى أنها تجمع المعطوف والمعطوف عليه في حكم واحد، وتضمهما معاً، لتتم الفائدة وتكتمل جوانب المعنى المراد، باستيفاء عناصر البناء التركيبي للكلام

فالواو في قوله تعالى: (**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ**) تضم البيان بتفصيل القول في رخصة صلاة الخوف إلى البيان المجمل عن رخصة قصر الصلاة في السفر عند خوف الفتنة؛ وذلك لتحقيق البيانين وتجلية هدي البيان القرآني في الرخصتين ، وضمهما معاً لتتم الفائدة وتكتمل صورة المعني المراد ، باستيفاء عناصر البناء التركيبي للكلام.

وكذا الواو في قوله سبحانه: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ) تجمع بين البيان عن رخصة وضع الأسلحة عند وجود أذى من مطر أو مرض ، وبين مضمون ما سبقها من البيان عن كيفية أداء رخصة صلاة الخوف؛ وذلك حتى تكتمل جوانب المعنى المقصود غرسه في قلوب المؤمنين وتربية الأمة عليه، من الأخذ بالرخصة مع الحذر والتأهب لمواجهة كيد الذين كفروا المتربصين بالمؤمنين في هذا الموقف.

وكذلك الواو في قوله جل وعلا: (وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ) تفيد الجمع بين إقامتهم للصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم وبين أخذهم أسلحتهم؛ لئلا يأخذهم العدو على غرة وهم يصلون ، فالضمير إما للمصلين وإما لغيرهم، فإن كان للمصلين فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر، وذلك لأن ذلك أقرب إلى الاحتياط وأمنع للعدو من الإقدام عليهم، وإن كان لغير المصلين فلا كلام

(١) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشى٢/٢٥٣ ط.: وزارة الأوقاف بالكويت/ طبعة ثانية١٤١٣هـ ١٩٩٢م

فيه. ويحتمل أن يكون ذلك أمراً للفريقين بحمل السلاح لأن ذلك أقرب إلى الاحتياط.([1])

والواو في قوله جل وعز: (وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى) تضم هذه الطائفة على الطائفة الأولى في تأدية صلاة الخوف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفيد أن الجميع قد حظي بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصلاة ، والمقصود تربية الأمة على الاتباع والحرص على تأدية الصلاة في أي موقف وتحت أي ظرف.

وهكذا جمعت الواو بين أجزاء الكلام وضمت بعضه إلى بعض في هذا السياق؛ لتتم الفائدة باستيفاء البيان العليّ عناصر التركيب والبناء ؛ ليتجلى المعنى المراد في أبهى صورة وآنق عبارة.

أما الفاء فهي للترتيب والتعقيب،أى أن المعطوف يعقب المعطوف عليه بحسب ما يمكن، وهو معنى قولهم:إنها تدل على الترتيب بلا مهلة، أى في عقبه[٢] .

يؤكد ذلك وقوعها في جواب الشرط، لإفادة ربط جملة الجواب بجملة الشرط، وتأكيد توقف حصولها عليها خاصة، كما في قوله سبحانه: :{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ}.

فوجود الفاء المعبرة عن معنى الترتيب والتعقيب مطلب بياني في هذا السياق وذلك لأمرين:

أحدهما ـ إفادة الربط بين الشرط وجزائه ، وبيان قوة الانسجام بينهما وتوقف الثاني منهما على الأول ومجيئه في عقبه بلا مهلة.

والآخر ـ التأكيد على تأدية صلاة الخوف بهذه الكيفية المترابطة الأجزاء المترتب بعضها على بعض في انسجام وسلاسة ، دون فاصل زماني يخل بهيئتها وانتظامها؛ فهي رخصة اقتضاها موقف الضرورة ، ودعت الحاجة إلى تربية الأمة عليها لتؤديها عند تحقق مقتضاها.

---

١) ينظر: الكشاف للزمخشري ٥٥٩/١ وتفسير الفخر الرازي أو التفسير الكبير ٢٦/١١.
(٢) البحر المحيط في أصول الفقه٢٦١/٢.

ولا يخفى ما في هذه الفاءات المتعانقة مع لام الأمر من تدعيم وتأكيد لمعاني الأمر وربط صيغته بما قبل الفاء مما يشي بأن حصول مقصود الأمر مترتب على ما قبلها ومنتظم معه انتظام حبات العقد في تشكيل صورة المعنى المقصود، وإبرازه في آنق عبارة وأتم تركيب وأجمل تعبير.

جمال الاستعارة في قوله:"وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم"

هذا أمر لجميع المسلمين المقيمين صلاة الخوف مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أي ولتأخذ جميع الطوائف الحارسون والمصلون حذرهم وأسلحتهم في حال صلاتهم وحراستهم وإتيانهم إلى الصلاة وانصرافهم منها([1]).

والأخذ: حَوْذ الشيء وتحصيله، وذلك تارة يكون بالتناول نحو قولك: أخذت الكتاب ، أي تناولته. وتارة بالقهر، يقال: أخذته الحُمَّى ، أي أصابته وتمكنت منه قهراً([2]).

والحذر: الخيفة والتحرُّز([3]) ، والحذَر والحِذْر بمعنى واحد، كالأثَر والإثْر، يقال: أخذ حذره، إذا تيقَّظ واحترز من المخوَّف([4]).

ويوصف المرء بأنه حذِر: أي متيقظ شديد الحذر والفزع. وحاذِر: أي متأهب مستعد كأنه يحذر أن يُفاجأ ، والجمع:حذرون وحذارى([5]).

فالأمر بأخذ الحذر هنا فيه تنبيه وحث على التيقظ والتأهب والاستعداد للعدو ؛ كي لا يأخذهم على غِرة وبخاصة وهم يؤدون صلاتهم.

وفي وقوع الحذر معمولا لفعل الأمر(وليأخذوا) والجمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ استعارةٌ مكنية ؛ لأن الأخذ بمعنى التناول يجري على الأسلحة بوصفها أمرا محسوساً يؤخذ، أما الحذر بمعنى التيقظ والتحرُّز فهو أمر نفسي معنوي، وهذا يعني أن البيان القرآني شبه الحذر بآلة تؤخذ وتُحصَّل، وحذف المشبه به (الآلة) ورمز له

---

١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣٨٢/٥

٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني١٢/١ط:دار التحرير للطبع والنشر . القاهرة ١٩٩١م.(كتاب الجمهورية).

٣) لسان العرب لابن منظور مادة (حذر)١٧٥/٤ ط:دار الفكر. بيروت.(أولى)١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٤) ينظر: الكشاف للزمخشري ٥٦٠/١،٥٤١

٥) لسان العرب مادة (حذر).

بلازمه وهو الأخذ . والجامع هنا هو وقاية النفس وعصمتها من مفاجأة العدو، فكأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه؛ ولذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ ، وجعلا مأخوذين، وهذا كقوله تعالى:(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) الحشر:٩ جعل الإيمان مستقرا لهم ومتبوَّأً لتمكنهم فيه، فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوُّء([1]).

والأمر بأخذ الحذر والأسلحة في هذا الموقف ناظر إلى قوله تعالى ـ في بداية الحديث عن آيات الجهاد ـ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا) النساء: ٧١ ، فهذه الآية تصدرت الحديث عن الجهاد في سورة النساء بوصفه أشق الطاعات أما آية صلاة الخوف فأتت في أواخر آيات الجهاد في هذه السورة ، وهذا من رد المقطع على المطلع بقصد تأكيد أهمية التحرُّز والتيقظ في ساحات الجهاد عامة ، وفي موقف تأدية صلاة الخوف عند مواجهة العدو بصفة خاصة ؛ لما فيه من إغراء الكافرين باستغلال انشغال المسلمين بصلاتهم والانقضاض عليهم، وهذا ما صرح به البيان القرآني في قوله سبحانه: (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً).

وقد تكرر الأمر بأخذ الحذر في هذا السياق من سورة النساء ثلاث مرات ، منها مرة واحدة في بداية آيات الجهاد ،ومرتان في آية صلاة الخوف ، كما جاء الأمر بالحذر منفرداً مرتين ، ومقروناً بالسلاح مرة واحدة :

١ـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ).

٢ـ (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ).

٣ـ (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ).

وفي تكرار الأمر بالحذر في بداية آيات الجهاد ونهايتها إشارة إلى ما يجب على المسلمين من ملازمة التيقظ والتأهب في ساحة الجهاد ابتداءً وانتهاءً ؛ حتى يأمنوا مكر العدو المتربص بهم.

---

١) ينظر: الكشاف للزمخشري ٥٦٠/١

فقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا) النساء: ٧١ ، خطاب مباشر من الله تعالى للذين آمنوا بوصف الإيمان المقتضي استجابتهم لأمر ربهم وتوجيهه. ففي ندائهم بوصف الإيمان المحبب إلى نفوسهم تنبيه وتوجيه ولفت لأنظارهم ؛ كي يتيقظوا ويتأهبوا فرادى وجماعات قبل النهوض والنفرة إلى الجهاد وملاقاة عدوهم.

وقد جاء الحذر معمولا لفعل الأخذ منفرداً دون ذكر السلاح ؛ مما جعل أهل العلم يختلفون في تأويل المراد من الحذر هنا:

فقول يرى: أن المراد من الحذر هنا السلاح ،والمعنى خذوا سلاحكم وتحذروا.

والقول الآخر يرى: أن يكون معناه ، احذروا عدوكم ، وهذا يتضمن الأمر بأخذ السلاح؛ لأنه من جملة الحذر من العدو([1]).

والتعبير بالحذر عن السلاح استعارة تصريحية على القول الأول، بتشبيه السلاح بالحذر بقصد الحث على التيقظ والتحرز عند حمل السلاح وملاقاة العدو ، وعلى القول الثاني أخذ السلاح مدلول عليه بفحوى الكلام، فيكون التعبير بالحذر ووقوعه معمولا لفعل الأمر (خذوا) استعارة مكنية بتشبيه الحذر بمعنى التيقظ والتحرز والتأهب للعدو بآلة يقي بها الإنسان نفسه ويدفع عنها الأذى، بجامع الوقاية والعصمة من الضرر.

وبالتأمل ندرك أن الفرق بين القولين يتجلى في العموم والخصوص فالتأويل الأول خاص بالسلاح ، أما التأويل الثاني فعام في التيقظ والتأهب والاستعداد النفسي والمادي عند النهوض لملاقاة العدو. وأخذ السلاح مدلول عليه باللفظ في الأول ، وبفحوى الكلام في الثاني. وبذا يتبين لنا جلاء التأويل الثاني وشموله لكل ما تحمله كلمة "الحذر" من معنى نفسي أو مادي، وهذا العموم ينسجم مع مقصود النداء والأمر في صدر الآية ، ومع طبيعة النهوض لقتال العدو (فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا) وما يقتضيه من تأهب ويقظة واستعداد معنوي ومادي. وهذا ما أكده وصرح به البيان العليّ في قوله تعالى: (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ). وزاد في تأكيده بقوله سبحانه: (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ)، كي يظل الحذر بمفهومه الشامل ديدنهم في ساحة الجهاد في كل وقت : عند النهوض للقتال ،وعند الصلاة في ساحة المعركة ،

---

١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ١٠/١٨١-١٨٢

وعند الأخذ برخصة وضع الأسلحة بسبب أذى أصابهم من مطر أو بسبب مرض أعجزهم عن حمل السلاح. والله أعلم.

سر الفصل في قوله تعالى: (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ...)

بعد أن بيّن سبحانه للنبي (صلى الله عليه وسلم) وللمسلمين كيفية صلاة الخوف ، وحثهم على وجوب أخذ الحذر والسلاح وهم يصلون، علل أمره بهذه الكيفية على هذا الاحتياط والحزم بقوله جلّ شأنه: (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً)

وفي الالتفات إلى خطاب المسلمين بعد التعبير عنهم بضمير الغيبة فيما سبق تقوية لقلوبهم وترغيب لهم على الامتثال لوجوب التيقظ والتحرز من كيد العدو المتربص بهم.

ففصل هذه الجملة عن سابقتها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ؛ حيث أفصحت هذه الجملة عن السبب في الأمر بأخذ الحذر والأسلحة وشدة الاحتياط والحزم عند أداء صلاة الخوف بهذه الكيفية ، فهي إجابة لما قد يخطر بالبال من السؤال عن علة الأمر بهذه الكيفية على هذا الاحتياط والحزم المعبر عنهما بصيغة الأمر (فلتقم ـ وليأخذوا ـ فليكونوا ـ ولتأتِ ـ فليصلوا ـ وليأخذوا) ، والمدلول عليهما بتكرار الأمر بأخذ الأسلحة والحذر على كل حال.

ويطلق البلاغيون على هذا النوع من الفصل "الاستئناف البياني"، وهو من أروع الأساليب وأقواها في تحقيق جمال الاتساق وحسن الترابط بين معاني الكلام ، وفي تجلية الارتباط الوثيق المتكلم والمخاطب ؛ "إذ يشعرك ـ دائماً ـ أن نفس المخاطب صفحة مفتوحة ومبسوطة أمام المتكلم يرى ويطالع فيها ما تحدثه تعبيراته من آثار"([1])، هذا إذا كان المتكلم أديباً مبدعاً، فكيف إذا كان الكلام لرب العزة الذي خلق النفوس وسواها ،ويعلم سرها ونجواها؟ فقد جاءت هذه الجملة معللة ومجيبة عن خواطر النفوس المأمورة بشدة الحزم والاحتياط ، ومقوية للنفوس المجاهدة الواثقة بربها، المتصلة به المطيعة له في أصعب الظروف وفي أشق الطاعات وأعظمها، وهو الجهاد في سبيل الله تعالى.

---

١) ينظر: علم المعاني د/ عبد الحافظ البقري ص١٨١ـ١٨٢ (كتاب دراسي إعداد قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالمنوفية).

والبيان القرآني يكشف في هذه الجملة عن أمنية مستقرة في وجدان كل من اتصف بالكفر ولو لم يكن عريقاً فيه؛ كما يشي بذلك التعبير بصيغة الماضي وبالموصول وصلته في قوله تعالى: (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا).

وقد صور البيان العليّ أمنيتهم وعبر عنها بصيغة الشرط وجوابه : (لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً)، فالشرط وجوابه في محل نصب مفعول به للفعل "ودّ " ، وفي هذا التعبير عدة إشارات بيانية كاشفة:

أولها ـ اصطفاء التعبير بـ "لو " الشرطية ، فـ "لو" هنا حرف شرط([1]) غير جازم يفيد تعليق حصول مضمون الجزاء لحصول مضمون الشرط ، مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء. وفي ذلك إشارة إلى انتفاء تحقق أمنية الذين كفروا عند عدم تحقق شرطها. وهذا تحريض وتنبيه للمسلمين على شدة التيقظ وعدم الغفلة ، وتقوية لقلوبهم.

ثانيها ـ التعبير بصيغة الفعل المضارع (تغفلون)، مع أن " لو " في أصل وضعها تدخل على الماضي ؛ فاستعمال "لو" في المضارع هنا لتنزيله منزلة الماضي لصدوره عمن لا خلاف في إخباره وهو الله تعالى الذي يعلم غيب السموات والأرض،ولتعلقه بالفعل الماضي "ودّ " المنبئ عن تحقق رغبة الكافرين واستقرار أمنيتهم في القضاء على المسلمين.

ثالثها ـ تقييد فعل الغفلة بقوله: (عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ)، وذلك لأن القوة بالآلات في ساحة القتال مرهبة للعدو ومنكبة([2]). وإضافة الأسلحة والأمتعة إلى ضمير المخاطبين للتنبيه على كونها مظهراً لقوتهم ورهبة لعدوهم.

رابعها ـ التعبير بفاء السببية وتصدرها جواب الشرط (فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ) للإشارة إلى أن الغفلة من الضعف الظاهر الذي يغري العدو بهم ، ويتسبب في إيقاعه بهم وغلبتهم واستعلائه عليهم ، كما ينبئ عن ذلك حرف الاستعلاء في (عليكم).

---

١) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام،٢٠٥/١ . والبحر المحيط لأبي حيان ٤٨٢/١ ط .: دار الكتب العلمية .بيروت. ط.: أولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٣٨٣/٥

والميل : العدول عن الوسط إلى الطرف ، ويطلق على العدول عن شيء كان معه إلى شيء آخر، كما هنا ، أي فيعدلون عن معسكرهم إلى جيشكم. ولما كان المقصود من الميل هنا الكرُّ والشدُّ عُدي بـ"على " ، أي فيشدون عليكم في حال غفلتكم([1]).

خامسها ـ في التعبير بقوله: (مَيْلَةً وَاحِدَةً) إشارة إلى سرعة الأخذ الخاطف والميل المفاجئ المباغت ،وانتصاب " ميلة " على أنها مفعول مطلق مبين للعدد ،أي شدة مفردة ، واستعمال صيغة المرة هنا كناية عن القوة والشدة ، وذلك أن الفعل الشديد القوي يأتي بالغرض منه سريعا دون معاودة علاج ، فلا يتكرر الفعل لتحصيل الغرض، كما يؤكد ذلك التعبير بقوله: (وَاحِدَةً) ، فهو تأكيد لمعنى المرة ، وتدعيم لمقصود الكناية ،أي هجمة واحدة قوية شديدة ، ليس لها ما بعدها ؛ ولهذا جاء التنبيه والتوجيه والحزم من الله تعالى تقوية للقلوب المجاهدة في سبيله تعالى.

دلالة التعبير بالمطر في الآية :

جاء التعبير عن المطر بصيغة النكرة المسبوقة بمِن ضمن جملة الشرط المقيدة لرخصة وضع الأسلحة دون إثم أو حرج، وذلك في قوله تعالى: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ). وهو معطوف بالواو على مضمون الكلام السابق ؛ لبيان رخصة أخرى في هذا المقام المحفوف بالتوجيه والعناية من الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله.

والجملة تحمل خبراً منفياً بـ "لا " النافية للجنس، والمنفي اسم نكرة : (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) ، أي إن أصابكم أي أذى بسبب مطر أو حل بكم مرض يُعجزكم عن حمل السلاح ، فلا إثم أو حرج من أي نوع يقع عليكم في وضع أسلحتكم، فنفي الإثم في ترك الأسلحة ووضعها مقيد بشرطه، وهو وجود عائق يحول دون حمل السلاح.

---

١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ٥/ ١٨٧.

وقد تكرر التعبير بنفي الجُناح خمساً وعشرين مرة في القرآن الكريم ، منها ست عشرة مرة منفياً بـ"لا" ، وتسع مرات منفياً بـ"ليس" ، وكلها في مقام التشريع بأنواعه المبثوثة في سور القرآن الكريم([1]):

ويتجلَّى الفرق بين نفي الجناح بـ (لا) ، ونفيه بـ (ليس) عند تأملنا وتدبرنا للسياقات المتنوعة لكلا الأسلوبين:

فجملة: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) تأتي في سياق الأحكام والفرائض([2]) ، ومن ثَم يكون مفادها الإباحة في مقابل الحظر ، فوضع الأسلحة في الحرب محظور على كل حال حتى عند الصلاة ، ومن ثم جاء نفي الجناح والإثم في وضعها عند وجود أذى بسبب المطر أو حصول مرض يعيق عن حمل السلاح في قوله تعالى: (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ) ، ومفاد النفي هنا الإبلاغ في تأكيد إباحة ما كان محظوراً ؛ ولذلك كان اصطفاء التعبير بـ (لا) التي هي لنفي الجنس([3]) ، فكل ما يصدق عليه أنه جناح يكون منفياً.

أما جملة: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) فإنها تأتي في سياق المباحات وما يستحسن من الأمور([4]) ،فقصر الصلاة في السفر مباح مستحسن ؛ لما فيه من التخفيف على المسافر الضارب في الأرض الذي يخشى فتنة العدو، ومن ثم جاء النفي بـ (ليس) ـ التي هي لنفي مضمون الجملة في الحال عند أكثر النحاة([5]) ـ في قوله تعالى: (وَإِذَا

---

١) تكرر نفي الجُناح في سورة البقرة إحدى عشرة مرة(١١)، وفي سورة النساء خمس مرات (٥)، وفي سورة النور أربع مرات(٤)، وفي سورة الأحزاب ثلاث مرات(٣)، وفي سورة المائدة مرة واحدة(١)، وفي سورة الممتحنة مرة(١). (ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ/محمد فؤاد عبدالباقي ص١٧٨ (جنح). مطابع الشعب ١٣٧٨هـ).

٢) من بلاغة القرآن في آيتي الدَّين والرِّهان د/ سعيد جمعة .ص١١٦ مكتبة الآداب بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٣) مغني اللبيب لابن هشام ١٩٤/١

٤) من بلاغة القرآن في آيتي الدَّين والرِّهان د/ سعيد جمعة .ص١١٦.

٥) وتنفي غير الحال بالقرينة . ينظر: الإيضاح في شرح المفصَّل لابن الحاجب ٨٠/٢ تحقيق :د/إبراهيم محمد عبدالله .دار سعدالدين للطباعة دمشق ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م. ومغني اللبيب١٩٤/١.

ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا) النساء:١٠١.

فالنفي بـ (لا) مسلَّط على الاسم النكرة (جناح) لإفادة عموم النفي وتأكيده في مقام التشديد على وجوب أخذ الحذر والأسلحة وعدم الغفلة عنهما ؛ لئلا ينال منهم الذين كفروا.

أما النفي بـ (ليس) فمنصب على مضمون الجملة من جواز قصر بعض الصلوات في الكمية في حال الضرب في الأرض.

ونفي الجناح والإثم في وضع الأسلحة في هذا السياق مشروط بقوله تعالى: (إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى) فهذا شرط تقدم

عليه جوابه ، وقد توسط بين جملة الجواب ومتعلقها. أي: وإن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى فلا جناح عليكم أن تضعوا أسلحتكم .

وفي تقديم الجواب على شرطه من الدقائق والأسرار البلاغية ما لا يخفى على المتدبر المتذوق ، ومنها:

ـ التعجيل بما يسرّ النفوس وتطمئن له القلوب من عموم نفي الحرج والإثم في وضع السلاح إن تعذر حمله ، وذلك في سياق تهيمن عليه التعبئة النفسية والحذر.

ـ تأكيد النهج الرباني رفع الحرج عن هذه الأمة ، وبخاصة عند المشقة.

ـ بيان أهمية جملة الجواب للمخاطبين وما تفيده من الترخيص في وضع الأسلحة عند تعذر حملها.

ـ تأكيد أن هذه الرخصة هي من فضل الله ابتداءً ، سبحانه له المن والفضل.

بلاغة التذييل في الآية:

وقد جاء تذييل الآية بقوله سبحانه:﴿ **إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**﴾ بهذا الأسلوب المؤكد الجازم بإهانة الكافرين؛ وذلك ليزيل ما قد يتوهم من غلبة المشركين وقوتهم بسب تكرار الأمر بأخذ الحذر ، وليقرر أن أخذ الحذر تعبدٌ لله تعالى واستجابة لأمره سبحانه.

فهذا إخبار من الله تعالى أنه يهين عدوهم ويخذله، وينصرهم عليه.

والتأكيد فيه لإزالة ما قد يُتوهم من غلبة الكافرين ، ولتقوية قلوب المؤمنين؛ ليعلموا أن الأخذ بالحذر ليس لقوة المشركين وإنما هو تعبد لله تعالى.([1])

١) ينظر: الكشاف ٥٦٠/١.

الخاتمة

بعد هذه الوقفة المتأملة المتدبرة في رياض البيان العليّ ، نستطيع أن نقطف الثمار الآتية:

١ـ أغلب ما ذُكر المطر في القرآن الكريم كان مطر حجارة، سواء ذُكر ذلك تصريحاً أو فُهم من السياق.

٢ـ لم ترد في النظم القرآني صيغة (مَطَر) ، بل جرى التعبير فيه بصيغة (أَمْطَر) بمعنى (أرسل) على سبيل الاستعارة ومن ثمّ تعدَّى بحرف الاستعلاء (على) في جميع مواضعه.

٣ـ استعمال (أمطر) بمعنى أرسل في سياق العذاب خاصة في القرآن الكريم ليس من قبيل الدلالة أو المعنى الوضعي لهذا الفعل ، بل من قبيل الإفادة المستقاة من السياق من ناحية ، ومن الصياغة والبناء التركيبي للجملة من ناحية أخرى ، فجميع السياقات التي ورد فيها التعبير بـ (أمطر) سواء بصيغة الماضي المسند إلى (نا) العظمة ، أو بصيغة الطلب هي سياقات إخبار عن عقوبة وعذاب ، أو طلب للعذاب ، كما أن تعدِّي الفعل بـ (على) جعله يتضمن معنى أرسل ، ووقوع (حجارة) مفعولًا به تصريحًا أو إفهامًا يؤكد ذلك ويقويه ، وينبئ عن معنًى جديدٍ اكتسبه هذا الفعل من السياق والتركيب.

٤ـ جاء الإخبار عن هلاك قوم لوط ـ عليه السلام ـ بأكثر من أسلوب ، وبعدة وسائل في الإبانة والتصوير حقيقةً أو مجازًا ؛ وذلك بقصد تقليب المعاني وتنوع أساليب الإبانة عنها ؛ لتكتمل صورة المشهد من جميع

جوانبها بعد تفريقها على السور بما يتلاءم مع سياق كل سورة ومقصودها وأبنيتها التركيبية.

٥ـ امتزاج الخبر والإنشاء في بناء المعاني في آية "النساء" ينبئ عن غاية يهدف البيان القرآني إلى تبيانها في هذا المقام ، وهي: الجمع بين التثقيف والتكليف في توجيه هذه الأمة وتعليمها أمر دينها ؛ فالإخبار بأمور لا يعلمها المخاطب أو لا يقف على كنهها هو تثقيف لقلبه كي يطمئن ، ومعرفة لعقله كي يستنير ويعبد ربه على علم. أما التكليف فيقتضي ــ في الغالب ــ توجيهاً بالأمر أو النهي ، وهذا ما عبر عنه البيان العليّ في هذه الآية.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المصادر والمراجع

١ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ط: إحياء التراث. بيروت. (د.ت).

٢ـ أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي د/ حسني عبد الجليل يوسف . دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة (د.ت).

٣ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية /مصطفى صادق الرافعي المكتبة التوفيقية بالقاهرة. (د.ت).

٤ـ الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد المنير الإسكندري (حاشية على الكشاف) ط: دار الفكر بيروت.

٥ـ الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات بن الأنباري. ت/ محمد محي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة بالقاهرة. الطبعة الرابعة ١٣٨٠هـ ١٩٦١م.

٦ـ الإيضاح للخطيب القزويني ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٧ـ الإيضاح في شرح المفصَّل لابن الحاجب تحقيق :د/إبراهيم محمد عبدالله .دار سعدالدين للطباعة دمشق ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

٨ـ البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي. ط. وزارة الأوقاف بالكويت/ طبعة ثانية١٤١٣هـ ١٩٩٢م

٩ـ بدائع الفوائد لابن القيم نشر: دار الكتاب العربي. بيروت.(د.ت)

١٠ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية ـ بيروت. (د.ت).

١١ـ البيان والتبيين للجاحظ.ت: عبدالسلام هارون ط:مكتبة الخانجي بالقاهرة (السابعة)١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

١٢ـ التبيان في إعراب القرآن للعكبري .المكتبة التوفيقية بالقاهرة

١٣٩٩هـ.

١٣ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك. ت:محمد كامل بركات ط:دار الكتاب العربي١٣٨٧هـ١٩٦٧م.

١٤ـ تفسير ابن كثير المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٥ـ تفسير بحر العلوم للسمرقندي تحقيق/الشيخ علي معوض وآخرين. ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت. طبعة أولى١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١٦ـ تفسير البحر المحيط لأبي حيان. دار الكتب العلمية. بيروت. طبعة أولى١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١٧ـ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.ط: الدار التونسية.

١٨ـ تفسير الفخر الرازي أو التفسير الكبير ط: دار الفكر. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١٩ـ الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ت: فخرالدين قباوة ،ومحمد نديم فاضل. المكتبة العربية بحلب. طبعة أولى١٩٧٣م.

٢٠ـ حاشية الدسوقي على شرح السعد (ضمن شروح التلخيص). ط: دار السرور (د.ت).

٢١ـ حاشية الشهاب على البيضاوي ط: دار صادر ـ بيروت (د.ت).

٢٢ـ خصائص التراكيب للدكتور/ محمد أبو موسى / الطبعة الثالثة مكتبة وهبة. (د.ت).

٢٣ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ـ تحقيق د/أحمد محمد الخراط. دار القلم دمشق). (د.ت).

٢٤ـ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ت:محمود شاكر ط. دار المدني. الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

٢٥ـ دلالة الألفاظ عند الأصوليين دراسة بيانية ناقدة د/ محمود توفيق سعد مطبعة الأمانة. الطبعة الأولى١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

٢٦ـ ديوان امرئ القيس .تحقيق/ محمد أبوالفضل إبراهيم ط: دار المعارف ـ مصر. (د.ت).

٢٧ـ ديوان رؤبة بن العجاج ت:وليم بن الورد ط:دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت. (د.ت).

٢٨ـ ديوان النابغة الذبياني .تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثانية . دار المعارف ـا لقاهرة (د.ت).

٢٩ـ شرح التلويح على توضيح التنقيح لسعد الدين التفتازاني ط: محمد علي صبيح. القاهرة. (د.ت).

٣٠ـ صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم د/ محمود توفيق سعد مطبعة الأمانة . ط /أولى١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٣١ـ عروس الأفراح للسبكي١٩٠/٣ ."ضمن شروح التلخيص" ط: دار السرور. بيروت (د.ت).

٣٢ـ علم المعاني د/ عبد الحافظ البقري (كتاب دراسي إعداد قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالمنوفية) (د.ت).

٣٣ـ القاموس المحيط للفيروز أبادي. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٣٤ـ القرآن والحديث دراسة أسلوبية. د/إبراهيم عوض .مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣٥ـ كتاب العين للحليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق: د/عبدالحميد هنداوي ط:أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م دار الكتب العلمية بيروت .

٣٦ـ كتاب المطر لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري(ت٢١٥هـ) ط: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ـ بيروت١٩٠٥م.

٣٧ـ الكتاب لسيبويه . ت/عبدالسلام هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط:ثانية١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٣٨ـ لسان العرب لابن منظور .طبعة دار الفكر بيروت١٤١٤هـ

٣٩ـ المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي ،المعروف بابن سيده ط:دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٠ـ المطول لسعد الدين التفتازاني . ط: المكتبة الأزهرية (د.ت).

٤١ـ معاني القرآن للفراء ت:محمد علي النجار.ط/ عالم الكتب بيروت ١٤٠٣ هـ.

٤٢ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم .ط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٤٣ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ/محمد فؤاد عبدالباقي . مطابع الشعب ١٣٧٨هـ.

٤٤ـ مغنى اللبيب ـ جمال الدين بن هشام الأنصاري ط: دار إحياء الكتب العلمية (عيسى الحلبي) القاهرة (د.ت).

٤٥ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .ط : دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة (كتاب الجمهورية) ١٩٩١م.

٤٦ـ مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، ، دار الجيل ـ بيروت ط:أولى

١٤١١هـ ١٩٩١م.

٤٧ـ مواهب الفتاح لليعقوبي . (ضمن شروح التلخيص)..

٤٨ـ الموطأ للإمام مالك . رواية محمد بن الحسن الشيباني. تحقيق/د/عبدالوهاب عبد اللطيف. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. الطبعة السابعة١٤٢٦هـ

٤٩ـ من بلاغة القرآن في آيتي الدَّين والرِّهان د/ سعيد جمعة . مكتبة الآداب بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٥٠ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي . ط: دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.(د.ت).